

نوفل

أعياد الشتاء

رواية

أعياد الشتاء

نغم حيدر

نوفل

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **© Stephen Mulcahey / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **Chemaly & Chemaly**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-180-9
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-181-6

الفصل الأول

كان الغزالُ المصنوعُ من الشرائطِ المعدنيّة مُلفتاً للنظر. لُفّت الشرائطُ بإتقانٍ لتصنعَ سيقانَه الممشوقةَ المُثبّتةَ في الأرض. وانحنت بدقّةٍ لتُشكّل رأسهُ الذي يومئ باطمئنان، وأذنيه الصغيرتين المُطرقتين بخجل، وجسمه المضاءَ بلمباتٍ صغيرةٍ كأنّها براعم بزغَ الضوءُ منها لتتلقفه عيونُ السائرين. غزالٌ بطولِ إنسانٍ يُمكن احتضانه.

على رغم أنّه طوال الأيام مشرئبٌ صامتٌ، إلّا أنّه لا بُدّ ينتظر شيئاً. تلويحةً ما من طفل مارٍّ إلى جانبه، أو ذرّات ثلجٍ ناعمةً تلامسهُ كي تُصبحَ ذؤابةً سائلة، أو كي تحومَ وتعبرهُ ثم تتجمعَ عند قدميه. ينتظرُ أجراس الكنيسة حتّى تُقرع كي يتكاثر إلى غِزلانٍ مضيئةٍ هُنا وهناك. أو شهينازاً جميلةً تُقرّب وجهها الناعمَ منه وترمقهُ بعينينِ مكحّلتينِ بالبردِ وتحزنُ لأنّه بلا عينين.

شهيناز التي قالت إنّ العُشب غزيرٌ وكثيفٌ عند قدميه، ومع هذا فليس بإمكانه الانحناءُ نحوه.

كثيرةٌ تلك الغِزلانُ التي عُلّقت على حِبال الزينةِ عالياً أو ثُبّتت إلى جانبِ النوافذِ وأمام مداخلِ المطاعم وعلى الواجهة الخارجيّةِ للجسرِ في منتصف المدينة. كثيرةٌ تلك المُصغّرة التي أصبحت

علّاقةُ مفاتيحٍ أو صورةٌ مطبوعةٌ على الأكياس البلاستيكيّة، أو سُكّريةً فوق قالبِ حلوى بالكريما. كثيرةٌ هي الغِزلان التي رأتها شهيناز في الشهرِ الأخيرِ من هذه السنة. حملها الأولادُ كدُمىً محشيةٍ بالقطن، أو ركبوا فوقها في لعبةٍ مجانية. حتّى هي اشترت الأسبوعَ الماضي بيجامةً حمراءَ مطبوعٌ عليها نسخٌ عديدةٌ للغزالِ ذاته واختارتها من دون أنْ تُجرّبها حتّى، وحين لبستها أخذت تعدو في حلمها بلا انقطاعٍ واستيقظتْ في منتصف الليل وهي تلهث متعرّقة.

أنّ الغزالُ في منتصف الساحة. مرّتِ السياراتُ وأطلقت عجلاتُها الساخنةُ بخاراً في وجهه. تقيّأ السُكارى هُنا عند قاعدته وبصق العجائزُ دماً عند قدميه. أما شهيناز فقد تأمّلتهُ صاغرةً أمام أُنسه المسائيّ ذاك ليشردَ ضوؤه في عينيها. مدّت يدها إليهِ كأنّما تسقيه. أمالت رأسها أمامه كأنّها ودّتْ أنْ تُضحكه. رنّت من بعيدٍ أصواتُ أجراسٍ وأغانٍ. الليلُ راقصٌ ماجنٌ في مكانٍ وراكدٌ ساكنٌ في مكانٍ آخرَ. مشحونٌ بالحياةِ في مكانٍ ومسلوبها في بُعدٍ آخر.

مَشَتْ إلى ضفّة الشارع الأُخرى بتثاقلٍ وهي تزجر ذلك الفضولَ المُخجلَ الذي تحكّم بمشيتها، فأوقفها متى أراد وحرَّكَ نظراتِها وثبَّتَها على الأشياءِ الغريبةِ التي ترويه، حتى إنّهُ جعلَ الطابة في مؤخّرة قبّعتها الأرجوانيةِ تتمايلُ مع حركةِ رأسها بكلّ الاتجاهات.

كاد سائقُ درّاجةٍ أنْ يدهسها منذ قليل فيما هي تتفرّجُ على المرأةِ البدينةِ وهي تصنعُ الـ«الكريب» وتقدّمهُ ساخناً للمارّة، وفضولُها لم يقتنع بعد أنّه أصبحَ خطِراً عليها.

بَدَت شهيناز في الآونـةِ الأخيرةِ كما لو أنّها تُهلوسُ بالبشرِ، بوجوههم وقُبّعاتهم وأكفّهم المُخبَّأة. ترصّدت مِظلّاتِهم حتّى تُفتح، أفواههم حتّى تلتقم النبيذَ الساخنَ من الكؤوس الكبيرة. أصبح هذا الفضولُ بحراً تتداعى فيه وتغرقُ إلى أنْ ينتشلها منهُ صوتٌ ما، لكزةٌ

من أحدهم على كتفها، فتتمدّدُ على شاطئ وعيها تكحُّ وتُخرج البشرَ من رأسها، كما لو أنّها تُخرجُ ماءً دخيلاً من رئتيها.

كان ذلكَ على سبيل الاستهزاء. لقد تعلّمتْ أنْ تلتقطَ أنفاً ضخماً على بُعدِ أمتارٍ كي تضحكَ عليه. عيناً حولاء. بشرةً بثراء. أذناً مائلةً قليلاً أو حاجبين غيرِ متناظرين. لم ينتبه السائرون إلى أنّها ضحكتْ على سحّاب بنطالٍ نسيَه صاحبُه مفتوحاً ومؤخراتٍ برزتِ الدهونُ فوقها واهتزَّت، فتياتٍ صغيراتٍ سميناتٍ يركبنَ الأحصنةَ الكهربائيةَ فتبدو تحت ثقلهنّ كأنّها ستُشلّ أو تُنفق.

في الماضي كانت تُسمّي صديقاتِها بألقابٍ تصِفُ نقصهنّ. واحدةٌ أمّ كبّاش لشعرها المنفوشِ والأُخرى مجعوصة لوِقفَتِها المائلة، أما تلك التي كانت تتلوّى ببطء وهي تتكلمُ أو تضحكُ فسمّتها الدودة، والتي كانت تقعُ في حبِّ كلٍّ من تصاحبهُ وتحلفُ إنّها لن تنساه فسمّتها صخرةَ الانتحار.

جميعهنَّ في الشّغل كُنّ تحت إمرةِ لسانِ شهيناز يتحرّجنَ من التقاطِها هفواتِهنَّ التي لم يكن بإمكانهنّ التحكمُ بها.

مؤكدٌ أنّهنّ اخترعنَ لها ألقاباً عديدةً لم تعرف بها ولم تهتمّ بهذا يوماً. في الشُّغل كانت فاتنةً، مِغناجَ. جمالُها أصيلٌ ذو رِفعة. ربما كانت هذه ألقابُها.

كان يوم الأحدِ الأخيرِ من السنة. بعدهُ سيأتي الإثنينُ الأخير. ومن ثمّ الثلاثاءُ الأخير. ستُقبِل بعدها سنةٌ جديدةٌ بلا طعمٍ أو شكلٍ، كهُلامٍ، تُزجُّ فيها شهيناز عنوةً وتُرمى في تتابعِ أيامِها المُخيف كأنّها ارتكبت إثماً. بعضُ السنواتِ ثقيلةُ الدم. كثيفةٌ أيّامُها بليدةٌ فصولُها، وبعضُها الآخر نسمةٌ عليلةٌ صافيةٌ تهزُّ كلّ ما هو رقيقٌ في نفسها وترفرفُ معها المشاعرُ كأوراقِ شجر. شهر كانونَ هذا جمّدَ التنبؤاتِ

وجعلَ السنة الجديدةَ تبدو قاسيةً، إذ إنّها خرجتْ من رحمِ هذا الصقيع.

ودّعت شهيناز الأيامَ الأخيرةَ هذه بحذر. سارتْ في ساعاتِها بتمهّلٍ وتؤدة كأنّها تُخزّن تفاصيلَها في رأسها. إنّ من يراها بكعبها العالي أينما ذهبت، تُطقطقُ وتسيرُ وتتغنّجُ للأرضِ الصمّاء وهي تمشي بصعوبة، يعلمُ أنها ليست جديرةً بالهرب من العامِ الجديدِ المقبل مهما كان بـردُه.. إلى أيّ مكان. الأحدُ الأخيرُ أنانيٌ مع أنّ شهيناز أطاعتهُ وخرجت في ليلِهِ بعدما ارتدتْ بنطالها المُبطّنَ بطبقةٍ من القطن والذي ضيّع تفاصيلَ فخذيها، وتأبطت لأجلِهِ حقيبتها التي كادت ذراعُها تُشقُّ لفرطِ اللذاتِ فيها من حلوى وشوكولا محشوّةٍ بالويسكي السائلِ وأحمرِ شِفاه. لقد بدا هذا اليومُ أكثرَ جمالاً وإغراءً وعجَّ بالأغاني التي ملأتْ أُفق السّوق. إنّه يتوعّدُ أولئكَ المُصابينَ بحمّى المشي المتثاقلِ بأنّه سيسحرُهم. جابتهُ شهيناز شريدةً في بهجته، تودّعهُ.

لقد وصلتْ إلى هذهِ البلادِ بُغتةً من دون أنْ تمتلكَ الفرصةَ كي تودّع أشياءَها الثمينة، ولهذا فقد حَلَفتْ إنّها ستمضي هُنَا تخترعُ لكلِّ شَيْءٍ زائلٍ طقوسَ وداعٍ، ولو كان هذا الشيءُ يوماً بارداً، صقيعاً سوف يذوي، سوقاً يعجُّ بالأنغامِ المتلاشيةِ في الأفق.

إنهم هُنا وما إنْ تبدأ السنةُ الجديدة، حتى يهمّوا بلمِّ الغِزلانِ من الشوارعِ وإطفاءِ الأنـوارِ الجميلة. يعبّئونها في شاحناتٍ كبيرةٍ ويكدّسونَها فوق بعضها لتتشابكَ أسلاكُها المُطفأةُ وسيقانُها الرفيعةُ بحجّة انتهاءِ الاحتفالات. لا عيونَ لها كي يُدركوا ذُلّها. لا أفواهَ كي يسمعوا حشرجاتِ إطفائِها الأخيرِ وتبعثُرَها فوق بعضها. لا دماءَ فيها كي تسيلَ حين يَلْوون الأسلاكَ كي تتسعَ الشاحناتُ لها. سينتظرون الوقتَ الذي تُصبحُ فيه زينةً قديمةً وعرضُها غير مناسبٍ كي يجوبوا

السّاحات كلّها يطاردونها. اثنانِ أو ثلاثة عمّالٍ سيتناوبون على كُلّ رصيفٍ أو محطّةٍ مستخدمين السلالم والرّافعات، إمّا يربطونها من مفصلِ القدم أو من الرّقبة أو يلفون الحبال حول وسطها.

وحدها شهيناز تُدرك قسوة العتمة بعد رحيلِ الغزلان، ويعزُّ عليها أنْ يُصبح الليلُ بعدئذٍ فارغاً شاحباً يهربُ منه الجميع منزوينَ في الدفء كدببة. مساكين.. أولئك الذين يرفضون أنْ يتلقّاهمُ الليلُ بأنسه ويمضون ساعاته العظام في النوم الثقيل. شهينازُ الليليّةُ لا تنام. بل تمنّتْ لو كان بإمكانها أنْ تقترب من أسرّتهم كشبحٍ وتدنو من آذانهم لتُسرّب أصوات اليقظة إليها وتصف لهم الليلَ بشفتيها المُرتجفتين بأنّه نجاة.. جنّةٌ قابعةٌ في الباحة الخلفيّة لا يتفقّدُ سِحرَها أحد.

ولم تحاول شهيناز أنْ تنفض الظُلمة عن نفسها يوماً. أو أنْ تضبط مُنبّهاً كي يوقظها صباحاً ويقطع الحبل الأخير بينها وبينَ ماضيها. بقيتْ على عهدها مع المساءات الرّاقصة حين لا يجوبُ الشوارع إلّا منْ هُنّ مثلها أو سائقو سيارات الأجرة الذين يُقلّونَ شبيهاتها، ولا يُدخِّنَ على الشُرفات سوى المولّهين الذين أصابهمُ الشُهاد، أمثالها.

في كُلّ البلدان، في كُلّ المدن النائية والبلدات الصغيرةِ، ستبقى شهينازُ تعيشُ حياتها ليلاً.

مشتْ قليلاً ثم تلفّتت إلى إشارات المرور خوفاً من أنْ تُخطئ إحداها وإلى خطوط ممرّ المُشاة لئلّا تتجاوزها فتصبح للسائقينَ أحقّيةٌ في دهسها. هبّت رياحٌ خفيفةٌ عربدتْ فوق وجهها فآلَمَها مكانُ الثُقب الذي صنعتهُ منذُ مُدّةٍ في منخرها وسدّتهُ بألماسةٍ مُلتمعة. التهب الجرحُ قليلاً في بدايةِ الأمر، إذ إنّها ما انفكّت تعبثُ بالألماسة وتُحرّكها أمام المرآة.

في المرّة المُقبلةِ ستثقبُ سُرّتها. وبعدها لسانَها رُبّما، لأنّها وبكلّ حالٍ لم تعد تستخدمهُ بكثرةٍ. أو ليس كما يجب.

لقد دَفَعَتْ مبلغاً مُحترماً من أجلِ الثُّقبِ المُحمرّ ولن تتردَّدَ في استلافِ المال مرّةً أُخرى كي تتمدَّد أمام فتاةِ الصالون وتُسلّمها صفحةَ جِلدها تطعنُه. حلقةٌ معدنيّةٌ في السُّرّةِ تُكَمّمُها كي لا تبوح. إنّه شعورٌ جميل، أنْ تُجَرِّبَ طعمَ الوخزاتِ الصغيرةِ المُخدِّرَةِ التي كانت نسّتها إياه الآلامُ النابضةُ القاسيةُ.

على كلّ حالٍ، يجبُ أنْ يحتوي الجسدُ كُلَّ هفواتِ المرء. إنْ أرادَ أنْ يثقُبَ ذاكِرَتَهُ لينسى أفعالَهُ فعليه أنْ يختارَ مكاناً ما من جسدهِ ويدُسَّ فيه قطعةً معدنية. لقد فكّرت شهيناز مرةً أنّها قد ناورتْ كثيراً. تقلّبت. تلوّنت. هربتْ وعادت. صعِدَتْ وهبطت. ماتتْ وعاشت. ولهذا عليها أنْ ترسمَ على جلدها أيضاً طبعةً لا تزولُ حتّى بأسيدِ النَّدَمِ الذي تصبُّه على نفسها.

ما إنْ تختارَ رسماً مناسباً لحالتها ستوشمهُ أيضاً على يدها أو كعبِ قدمها، أو أسفل ظهرها. ستجعل إبرَ الواشمين تنفلتُ من أجهزتها وتروحُ تدرزُ جلدَها الساحرَ بلا توقّفٍ متحررةً من أيدي أصحابِها الذاهلين. سيقولونَ إنّها المرةُ الأولى التي تشتهي فيها الإبرُ جسداً.

لاصقٌ، وردة. لاصقٌ، وردة. خَطَتْ شهيناز نحو مدخلِ محطّةِ القِطار.

حين يكونُ المرءُ مُستعجلاً ينسى أنْ يتفقّد الجزمةَ الرخيصةَ التي فقدت فردتُها اليمنى وردَتَها. لم يكنِ اللاصقُ متيناً، إذ إنّها منذ لبِسَتْهَا للمرّةِ الأولى عادتْ إلى السكنِ بوردةٍ مفقودة. بحثتْ في الممراتِ وعند بابِ السّكن وفي الطريقِ الذي سارت فيهِ ولم تجدها. ذاكَ أنّ الوردةَ رفضتْ رُبّما قدمَ شهيناز العريضةَ وارتدّتْ من شدّة

ضغطِ أصابِعِها المُستطيلةِ وأظافِرِها المُتقرّنةِ السميكةِ وضاعتْ في الهواء. أصبحت خطواتُها ناقصةَ الفتنةِ قليلاً.

استعجلتِ اليوم أكثرَ مما ينبغي وكأنّ الشارعَ سيهربُ منها والأسواقَ ستتضعضعُ وتُطوى كقطع كرتونٍ أو أنَّ الزينةَ ستُطفأُ ولن تعودَ للاشتعالِ مُجدَّداً. ما الذي وراءكِ يا شهيناز خانم؟ كُلّما تفقّدتْ فوضى استعجالِها المضطربِ هذا سألت نفسها السؤال ذاته.

وراءها جنيٌّ يطارِدُها كي تخرجَ، كي تُشرّع الأبوابَ والنوافذَ وتتنفّس. إنّه مُقيمٌ في وسادتِها ينقرُ رأسَها بفحيحه. وفي سريرها يركُلُ جسمَها وهي غافية. قصقَصَ القماشَ، أصلحَ الأزرارَ، ورقَّعَ الشقوقَ كي تكون ثيابُها جاهزةً دوماً حاضِرَةً في العَلّاقات. لفَّ شالاً حولَ رقبتِها، ألبسَها الجاكيتَ كنادلٍ شديدِ التهذيبِ، ثُمَّ دفَعها نحو أقربِ فوّهة. بوابةٌ أو شُبّاكٌ أو طاقةٌ صغيرةٌ. المُهمُّ أنْ تخرج. ثم سَدَّ بعدها جميع المنافذ كي لا تعود.

لم تعرف رفيقتُها في الغرفة أنّ هذا ليسَ بإرادتها. ألَحَّت عليها بالسؤال: «إلى أين تذهبين؟» ثم صرخَتْ فيها بغضبٍ: «خذيني معك. مشّطتُ شعرك وضعتُ الكُحل لك. خذيني معك». نزلَتْ شهيناز بعدها إلى المطعم لتتناول العشاء على أنّه فطورها. وشرِبَتْ شاي المساء الدافئ على أنّه قهوةُ الصحوة. ثم خرجَتْ من السكن بكل انفعالٍ كأنّما صدح في داخلها ديك.

بُنيت المحطّةُ في قلب السوق وفي صدرِ الزينةِ كُلّها. لكي يصل المرءُ إلى مدخلها عليه أنْ يصعد أدراجاً بطولِ المدخلِ تماماً. أضيئتْ مساندُ اليدين بحبلٍ من اللمبات الصغيرةِ وحوصِرتْ شجرةُ ميلادٍ في الزاويةِ عُلّقت عليها أجراسٌ وكُراتٌ فضيّةٌ وذهبيّةٌ. تدلّت

وقفت شهيناز باستعدادٍ وتلفَّتَتْ حولَها. بدا لها أنَّ جميعَ المُسافرينَ عارفونَ وِجهاتِهم دقيقونَ في حسابِ المسافات. أمّا هي وفي صعودها السُّلَّمِ بصعوبةٍ بسبب جاكيتها المنفوخةِ الطويلةِ إلى ما فوقَ الرّكبةِ، لا تنتمي إلى هذا الإتقانِ في المواعيد. إنّها تُشبه لوحةَ الإعلاناتِ المُضيئةِ التي نظرَ إليها المسافرونَ مُدقّقين بطاقاتِهم ثم ابتعدوا عنها، وبقيتْ هي تُضيءُ نفسها، للفراغ.

مُعتادةٌ على المواعيدِ الفضفاضةِ بين الساعةِ كذا وكذا. لطالما تقصّدَتِ التأخُّرَ والمماطلةَ كي تُحرّضَ لدى منتظريها أشواقَهم فتَتَسَلَّلُ الإثارةُ تدريجاً إلى أعصابِهم المشدودة. كانت تعاقبُ من يزعِجُها بكلمةٍ أو لفظةٍ في غير محلّها بأنْ تضربَ معهُ موعِداً وتقولَ إنّها قادمة. بعد أنْ يصل إلى المكانِ تخبرهُ بأنّها ستتأخر. تُبقيه مُنتظراً ولا تأتي، ليراها في سهرةِ اليومِ التالي بكاملِ زينتها تُراقصُ الجالسينَ على طاولتها فيما هو يحترقُ بندمه على ما قاله لها.

السفرُ في قطاراتِ شهيناز له أصوله. الرحلات السعيدة التي تأخذ المرءَ إلى أقاصي المُتعةِ يجب أنْ يكونَ ثمنها غالياً..

مع هذا فقد وصلتْ قبل الموعدِ بزمنٍ، إذ عرفت أنّها ستضيعُ في البدايةِ وستصعدُ الأدراجَ الخطأَ مرّاتٍ عِدّة حتّى تصلَ إلى أرصفةٍ مُقفلةٍ بسبب التصليحات. حَسَبتْ حِسابَ عثراتِها أمام المُستعجلين الراكضين، وهكذا، حتى تصلَ إلى المكانِ الهدف.

قرّرَت أنْ تتقمَّصَ دورَ المُسافرةِ قليلاً فطلبت كوباً من القهوة في كافيتيريا عند مدخلِ المحطّة. رشفَتهُ ثمَّ باعَدَت كُمَّ كنزتها فظهرتِ الساعةُ في ساعِدِها وافتعلتْ قراءةَ الوقت بدقّةٍ فيما ساعاتُ الحائطِ متوزعةٌ على كل جدرانِ المحطّة.

ألقتْ كلَّ حينٍ نظرةً على متاعها المجنونِ الذي يسكنُ حقيبتها. تخيَّلتْ أنّ أحدهم سيجثو أمامها على ركبتيهِ ويقول: «رافقيني يا شهيناز الحلوة، في عالم الأسفار».

رجالٌ ونساء. ليسَ الجميعُ كذلك. واحداً واحداً أعطتهم شهينازُ علامةً من عشرة. هبَطَ التقييمُ ليصبح من أصلِ خمسةٍ للرَّجلِ الذي جرَّ عربةَ أطفالٍ مُمسكاً يد امرأتهِ لا يتركها. ارتفعَ لأولئِكَ الذين لم يتحرّكوا كأصنامٍ يُغشي عيونهم ضبابُ التجاهلِ لكلِّ ما حولهم، بل عاينوا المسافرةَ المُترفة بعيونهم البرّاقة. ثمانية ونصف لذلك النّهم الذي أكلَ سندويشتهُ واقفاً وتمرَّغَت شفتاهُ بالدهنِ اللّماع. النصف ربّما لشفتيهِ المُكتنزتينِ الحمراوينِ. أو لتلقُّته الدائم، هُنَا وهُناك، بعيداً عن محتوى السندويشة.

تسعة لصاحب المِعطفِ الأسودِ الأنيقِ القصير وهو يجرُّ حقيبتهُ الصغيرة بتكبُّرٍ مُصطنع. إذ إنّ بنطالهُ الكتّان لائقٌ بفخذيهِ ومؤخرتهِ وشفُّ عضلاتِهِ المشدودة. تسعة ونصف لكلِّ رجلٍ بشاربٍ وذقنٍ نابتةٍ منهم كان شكله. الذقنُ التي تغوي شهيناز وتخزُّ صدرها، أو تنغرسُ في مسامات رقبتها ومؤخرةِ رأسها.

يا ذا اللحية التي قد تطولُ. وتشيبُ بين كفيّ شهيناز الحالمة، كم علامةً تُعطي لذاتِ الكعبِ الرقراق والمِشيةِ المنسابةِ، كقطارٍ لم تُعرف لهُ محطةٌ؟

توقّفت ثمّ فتحتْ حقيبتها. نكَشتِ الأغراض فيها وتلمَّستها بأصابعها. تمتمتْ وغطّى شالُها شفتيها فتعشّقتِ الكلماتُ في خيوط الشال ورطُبتهُ. أين هي ورقةُ فهد؟ قالت، وأبعدتهُ عن فمها كما لو أنّ هذا سيجعلُها ترى بشكلٍ أفضل.

وجدت علبةَ العلكةِ أثناء بحثِها ففتحتْها والتقطتْ منها بأظافرها الطويلةِ حبّتينِ كبيرتينِ وضعتهما فوقَ لسانها مباشرةً

وأدخلتهما نحو جوفِ فمها. مضغَت ومضغَت. أظافرُ مطليّةٌ بلونٍ فاقعٍ، يشتهي من يراها مصّها كحبّاتِ كرز. ورقةُ فهد النذل أين هي؟ أخرجتها وفتحتها وأخذتْ تقرأ. نعم هذان الحرفانِ الكبيرانِ المُحاطان بإطارٍ أحمرَ يعنيان محطّة القطار. فهمنا وأصبحنا في الداخل. ماذا بعد؟ هذه الكلمةُ معناها الرّصيف. قارنتِ الكلماتِ المكتوبةَ بتلكَ التي على اللافتة. مدينةُ فهد اسمها.. اسمها.. يبدأُ بحرفٍ على شكلِ خطّينِ، وبينهما خطٌّ صغيرٌ عرضيّ. من هُنا إذاً.

أغلقتْ حقيبتها ومشتْ في بهوِ المحطّةِ مُمسكةً بالورقة بكلتا يديها. إنّها خريطةُ البقاءِ التي كتبها لها فهد كي لا تضيع.

هي متأكّدةٌ أنّها ليست وحدها من تملك ورقةَ الإغاثةِ هذه. تعليماتٍ لذوي الأذهانِ البليدة المتيبّسة. ورقةُ فهد ممتلئةٌ بالكلماتِ التي تعينها على فكِّ الرموزِ الأجنبيةِ هذه.. هذا ليس مُخجِلاً. ليس مُهِمّاً، مادام الجسدُ قادراً على حلحلةِ كُلّ الرموزِ بانفراجةِ ساقين، أو بقبلةٍ تبدأ ولا تنتهي. مشاكلُ الاستيعابِ البطيءِ لدى شهيناز محلولةٌ بسهولةٍ. لم تعد تكترثُ بها وصبّت اهتمامها على أمورٍ أخرى.

آه. العلكةُ الضخمةُ بطعمِ الشمّام تُساعدُ على التركيزِ أكثر. جعلت تميلُ بشفتيها وهي تلوكُ ثم صنعت بالعلكةِ بالونةً. رآها موظّف قطعِ التذاكر وهو جالسٌ وراءَ مقعده في الكشكِ الصغيرِ وسط المحطّة فابتسمَ لها. بادلتهُ الابتسامةَ فيما علقَ على شفتها العُليا أثرٌ من العِلكة حاولت إزالتهُ بلسانها، فأخذت مقدّمتهُ تروحُ وتجيء على مساحةِ شفتيها. بقيتْ تنظرُ إلى الموظفِ الذي بدا وكأنّ تذاكره نفدتْ فجأةً ونسيَ كلّ السفرياتِ وفتح فاهُ راجياً أثرَ العِلكةِ ألّا يزول بسهولة. أوه العلكة ملتصقةٌ بشدّة.

ابتلعتْ شهيناز شفتها العُليا نحو فمها ونظّفت أثرَ البالون عنها بأسنانها.

هذه حساسيّة شهيناز العالية. إنْ سقطتْ شعرةٌ من رأسها وعلقتْ على ساعدها فإنّها تبقى تشعرُ بها وتضربُ المكانَ بيدها حتى تلتقطها بأظافرها. وإنْ لامسَ رِمشٌ ساقطٌ جوفَ عينها فركتها نحو الداخل كي تُبعده. إنْ علقتْ بين أضراسها بقايا اللحمِ المشويِّ ركضتْ تزيلها بكلّ الوسائل. لم يشعر أحدٌ ممن عرفتهمْ أنّها حساسةٌ تجاه الشوائبِ على هذا النحو.

أم إنّهم شعروا؟

وصلتْ إلى الرصيف الرابع. نعم هُنا. الدليلُ أنّ أغلبَ الناسِ مُتجمهرون هُنا مُنتظرينَ القطار ذاته. والدليلُ الأكثرُ وضوحاً هو أنّ كُلّ المقاعدِ مشغولة. داستْ إحدى الفتياتُ المُستعجلاتُ على جزمة شهيناز. حظّها سعيدٌ أنّها لامست الفردة ذات الوردة الناقصة، والله لو أنّها قرَبَتِ الوردةَ في الفردة الأخرى لسبَّتها وشتمتْ أجدادَها جميعاً بكلّ ألفاظِ الشوارعِ التي تعرفها، وللوّحتْ بساعديها في الهواءِ تردحُ ثم صفَّقتْ بقوةٍ في وجهها. لا يمكن لأحد أنْ يمسَّ وردةَ شهيناز الوحيدة.

سيأتي فهد بعد رُبع ساعة. لا تعرفُ إنْ كانت قادرةً على تمييزهِ بين الجموعِ بظهره المُحدّب قليلاً وتكشيرةِ وجههِ القاتمة. جلستْ على المِقعد بين رجلينِ ومدّت قدميها أمامهما. لا أحد يلفتهُ منظرُ قدمينِ متباعدتين. فخذينِ مضغوطين بطبقاتِ القطن. ربّما هم ينتبهونَ لكنهم يُبصبصونَ بطرفِ أعينهم من دون أنْ تشعر شهيناز.

حلّت سحّابَ المعطفِ فارتاح جسمُها قليلاً. ظهرَ صدرُها المُنتفخُ والمُكوّر كأنّه بكرتا صوفٍ تحت كنزتها السميكة. خلعت شالها فانسدلَ شعرُها القصيرُ تحت أذنِها بقليل. «لا أحد يعرف أنّه

مُهملٌ إلّا أنتِ ثم إنّه يطول بسرعة، انظري ها»، قالت لنفسها واضعةً الشال في الحقيبة.

من سينتبهُ إلى شعرٍ منفوشٍ كُلّمَا وضعت خصلاتِه وراءَ أُذنِها دفع بصيوانِها نحو الأمام من كثافتِهِ وكلّما قسمتهُ إلى جُزءين بدا الخطُّ في مُنتصفِ رأسها مُلبّداً مُلتصِقاً به، فيما بقيّةُ كُتلةِ الشعرِ منفوشةٌ متطايرةٌ؟ لا بأس.. فكلُّ هذا كثيرٌ على فهد، وعلى هذينِ المُتجاهلينِ لها تماماً. واحدٌ يعبثُ بهاتفهِ والآخرُ يقرأ جريدة.

أذاعت مُكبّراتُ الصوتِ مواعيدَ الرحلات. طقطقت بعلكتها ثم تنهّدت بصوتٍ مسموع. تردّد صدى صوتُ المذيعة في كُلّ الأرجاء وارتدّ عن أذنيّ شهيناز كأنّها حائطٌ كتيم. لغوٌ غير مفهوم. حروفٌ لا تُشبهُ الحروف. تذكّرت القطارَ المؤلّف من أولادٍ قذرين، حُفاة، يحكّون رؤسهم باستمرارٍ ويمسحونَ أنوفهم بثيابهم، حين لحقوا بها حتّى بابِ السّكن وهم يُرددون مُستهزئين: شهيناز القحباء.. شهيناز القحباء.

***

إنّ منظرَ فهد وهو يترجّلُ من القطارِ بظهرِهِ المُحدّبِ كأكثرِ التماثيلِ قباحةً، لهو أشدُّ بغاءً وفُحشاً من كُلّ ما فعلتهُ شهيناز طيلة حياتها. شفتهُ السفلى المُتدليّةُ كشفةِ جملٍ بليدٍ مُشينةٌ أكثرَ بكثيرٍ من خيوطِ اللعابِ اللزجةِ حين تدلّت من أفواهِ الرّجالِ الذين استلقوا فوقها. لشهيناز العديدُ من الألقابِ، وليس ذاك الذي ناداها به أولادُ المُتعةِ أولئكَ بجديد. ولا واحدٌ منها ساقطٌ مُنحطٌّ كوجهِ فهد المسودّ المليءِ بالإفرازاتِ والحبوبِ المُتقيّحةِ. رائحةُ فمهِ، الشعيراتُ الخارجةُ من منخريهِ الضخمينِ، حاجباهُ الكثّان. وجه فهد الوسخُ كوحلٍ تمرّغت فيه الخنازيرُ لا بُدّ جعلَ المسافرين يتجمعونَ في ركنٍ ما من القطارِ كي يتجنبوه.

قام الرجلانِ من جانبها بالتناوب. أغلقَ الأوّل هاتفهُ ثم وضعهُ في جيبِ معطفه. وقفَ ونفض ثيابهُ ثم مشى. طوى الآخرُ الجريدةَ وأعادها إلى الحقيبةِ المستطيلةِ التي كانت مستلقية في حضنهِ. خلعَ نظارتهُ ووضعها في علبتها ثم رحل. ضمّتْ شهيناز قدميها نحو بعضهما ولعبتْ بالعِلكةِ بإصبعها ولسانها وهي تتبعُ بنظرها فهد مُتجهاً نحوها.

رآها وكأنّها مطليةٌ بالفوسفورِ الذي يدهنون به لافتاتِ الطرق. تتبّعَ رائحتها ككلبٍ بوليسيّ يشتمُّ محطّةً كاملة لينبحَ على شهيناز. هي بودرةٌ مُخدِّرة. سلاحٌ مُهرَّبٌ ربما. هكذا ملوّحَ اليدين خالي الوفاض. تدافعَ مع الآخرين حتّى اقتربَ منها. لوى رقبتهُ من الحماسِ كثعبان. وجهه صفحةُ بحيرةٍ جعّدها الهواء.

ظنَّ أنّهُ مبتسمٌ وسيمٌ، وفي الحقيقة كُلّما مشى خطوةً نحوها، اصفرّت أسنانه أكثر.

– عرفتكِ من هالجاكيت، ألن تغيّريها؟

– أنتظركَ حتّى تُقرر أنْ تستحم.

انحنى نحوها وقبّلها من خدّها من دون أن تدير وجهها نحوه. اندفعتِ العلكةُ نحو حلقها من دون قصدٍ، فابتلعتها.

جاكيتها المنفوخة بكل ما يطرحهُ جسدُها الوحيد، محشوةٌ بريش إوزّ إلّا أنّها تشعرُ بأنّه نُتف منها. ينفث الحرارةَ التي تولّدت قبلاً من صدرها وإبطيها واحتكاك فخذيها. كان دفؤه خاصاً.

حين وصلتْ إلى هذه البلادِ بكنزةٍ قطنيةٍ رقيقة وبنطالِ جينز وحقيبةٍ رخيصةٍ بدواليب مُخلّعة، ارتجفت وارتعشتْ شفتاها وازرقّت أصابعها من هول البردِ الذي طالها مع أنّ الوقتَ كان ربيعاً. وما إنْ سنحت لها الفرصةُ اشترتْ الجاكيتَ البيجَ المنفوخةَ.

استعارتها منها مرةً أو مرتين رفيقةُ السّكن ثمّ ردّتها قائلةً إنّها ضخمةٌ بلا فائدة. أجابتها شهيناز أنّ ثدييها الصغيرين هما المزروعان في صدرِها هكذا بلا فائدة وأشاحت بوجهها عنها. كأنّ الذي ينتقد جاكيتها يجب أنْ يُحاسب أشدّ حِساب. ناولتْ فهد علبةَ الشوكولا بالويسكي فالتمعت عيناهُ وأخذ ينزعُ عنها وَرَقَها بانفعالٍ. وضع قطعتينِ دفعةً واحدة في فمه. «مذوقة»، قال مغمضاً عينيه من فرطِ اللذّة.

كان يرتدي جاكيتاً جلدياً بجيبين مُربّعين على الصدرِ وآخرين في الأسفلِ وضع كفيه فيهما بصعوبة، بنطالاً قماشياً أسودَ طويلاً وحذاءً رسمياً مُدبّباً من الأمام. الموديلُ ذاتُهُ. لم تتخيل شهيناز يوماً أنْ تراهُ بثيابٍ غير هذه حتّى في هذا البردِ القارس. شدّها من يدها منتشلاً إيّاها من مقعدِ انتظارها وسارا معاً نحو المخرج. مرةً تبعتْ شهيناز حدبةَ الظهرِ القبيحةِ ومرةً تبعَ فهد الطابةَ المُتحرّكةَ في مؤخرةِ قبعتها الأرجوانيةِ شاتماً جاكيتها الطويلة، حتى وصلا.

من لها سواه؟ في كُلّ البلادِ لم يكن لها أحدٌ سواه. هو سيّارةُ إسعافِها التي تجتازُ الطرقاتِ مسرعةً هارسةً تحت عجلاتها كل العوائق لتصل لنجدتها. هو عطّارُ جروحها الذي يأتيها بأكثر البلاسمِ غرابةً وفاعلية.

لطالما حضرَ إلى قبوها الذي كانت تسكنهُ مع خدّامةٍ لينظّفَ تقيّئها ونتانتها، وتركَ لها بعضَ الأدوية وعُلبَ محارمَ عديدة، كؤوساً وصحوناً بلاستيكيّة. هي تتفرّغ لعملها وهو يلمّ مُخلّفاتِه.

«اشتقتُ إليكِ أيتها النورية»، قال لها.

ضحكتْ بأعلى صوتها ودفعتهُ بكفّها فتصنّع أنّه كادَ يقع. «لك شو هاد ولك؟»، أمسكَ ألماسةَ أنفها فقرصتْ ساعده. «هذا موديل جديد.. تعرف أنت. شهيناز ملولة». استمرتْ بالضحكِ الرنّانِ

والتمعت الألماسة. «كفى ضحكاً والله إنك تجننيني. أكثرُ الكنزاتِ شمكاً في العالم كلّه، فوق أجملِ ثديين في العالم كلّه».

ضربتهُ بحقيبتها ضاحكةً فأخذ يفرُّ منها حتى كادتْ تقعُ علبةُ الشوكولا من يده وأفسحَ له الناس مكاناً كي يتّسعَ الطريقُ لتهريجه. جاءَ إلى مدينتها كي يحتفلا برأس السنة معاً في إحدى التجمّعاتِ هُنا. عليها أنْ تحتملَ في اليومين المقبلين سماجةَ نكتهِ ورائحةَ ما يرتديه مثل موتٍ متخمّر أو جثة قديمةٍ تسيرُ إلى جانبها.

ومن حسن الحظ أنّه سينامُ عند أحد أصدقائهِ، إذ إنَّ غرفة شهيناز في السَّكنِ ضيّقةٌ وسريرُها أضيق، والمساحةُ التي تتركها لها رفيقةُ السّكن جدُّ صغيرة.

في البداية سكنا معاً لولا أنّ فهد تشاجرَ مع أحدِ روّاد السّكن ولكمهُ على أنفه حتى بطحهُ أرضاً. لم يَلِقْ بفهد دورُ المِغوارِ الذي ينخرطُ في المشاكلِ، إذ إنّ انحناءةَ رقبتهِ ومنظرَ ذقنهِ المستديرةِ وفي منتصفها غؤورٌ صغيرٌ لطالما أوحيا لشهيناز بالجبنِ وبخاصّة حينَ ينظرُ جانباً، أو يهمسُ في أذن الزبائن فيكادُ يركع.

لم تطلب منه يوماً أنْ يدفعَ عنها ظُلماً سوى أنّه في تلكَ المُشاجرةِ ودَّ أنْ يستعرضَ ذكورتهُ أمام إحدى السيداتِ في السّكن فطُرِدَ منهُ أمامها أيضاً. آه كم كان منظرهُ مُضحكاً وهو يتنطنط أمامَ غريمهِ مُتصنّعاً قوّةً مُبهرةً وغضباً حارِقاً.

لم تُقصّر شهيناز بالاستخفاف به، يومَ شبّهتْ مشيتهُ المُرتخيةَ ويديه الملولحتين في الهواءِ بقضيبٍ هاجعٍ لا ينتصبُ ونشرتْ هذا اللقبَ بين البناتِ فضحكنَ لأيام.

مع هذا، فإنّ المدينةَ بدتْ، بزيارةِ فهد، مختلفةً. على رغم كلّ الآثامِ التي يكتسبها المرءُ بمجردِ النظرِ إليه فإنّه يبدو كوحشٍ هزمتهُ

البشاعةُ وجعلتهُ خانعاً. وبما أنَّ شهيناز انتظرتهُ حتى تتناولَ وجبتها، فهذا يعني أنّه أثيرٌ لديها، وإنْ لم تلمّح لهذا، فهي تشعرُ به.

مع أنّها تسبّه. تقرفُ من رائحةِ الشوكولا بالويسكي حين تذوبُ في فمه. تتصنّعُ أنّها تعثّرهُ. تصرخُ فيه. تضحك على كل نواقصه. إلّا أنّ له مكانة لديها.

ماذا تأكلينَ في هذا الليل؟

وقفَ فهد إلى جانبِ الغزالِ المُضيءِ متفحّصاً المطاعمَ المفتوحةَ حول الساحة. «بيتزا»، قالت شهيناز، وسارا معاً.

فتحتْ شهيناز فمها نحو الأعلى لتلتقطَ خيوط الجبنِ السيّالِ مُباشرةً فوقَ لسانها. نفخ فهد على القطعةِ بين يديه قبل أنْ يلتهمها وتلوّنت شفتاهُ بالصلصة. كلّما التقتْ فهد تذكّرت كم أنّها فجعة، وأنّ صوتَ التهامها للّذات يصدحُ في كُلّ الأرجاء. تذكّرت أنّها في الماضي لم تكنْ تنتبهُ لا إلى ظلالِ السّوسِ الغامقةِ في ضحكةِ فهد، ولا إلى أنّ صوت سعالِه مقرفٌ إلى هذا الحدّ، حين كان يُخابرُها في أول الليلِ وتردُّ عليه. يعلمها أنّ الزبون سيصلُ بعد دقائق فتدكُّ يدها في كُمّ الكنزةِ المكشوفة. تشكرُهُ وهي تضعُ قرطيها المتدلّيين المُشكشكينِ بالجواهر ثمّ تُغلق السمّاعةَ. تضغطُ قدمها المستطيلةَ في حذاءٍ بكعبٍ عالٍ وتصعدُ درج مسكنها بسرعةٍ من دون أنْ تفقدَ وردةً ما في طريقها.

حرقتِ الجبنةُ الساخنةُ حلقها، وسطح لسانِها. ما عادت تستطعِمُ شيئاً. ما عادت.

***

لا أحد يحبُّ راوية، وراوية لا تحبُّ أحداً.

ظهراً، دفعت راوية البابَ بقدمها وأدخلتْ معها الأكياسَ الثقيلةَ بصعوبة إلى الداخل. أغلقتهُ بقدمها أيضاً. رمت الأكياس أرضاً

وجلستْ إلى جانبها. خلعت حذاءها. وفركتْ أماكنَ الضغطِ والبثورِ ومسامير الأصابعِ في قدميها. ألقتْ نظرةً على رفيقتها شهيناز التي تنامُ حتى الظهرِ وتشخرُ ملء حنجرتِها وتأفّفت منها بصوتٍ مسموع.
لمَ كلّ هذا العددِ من حمّالاتِ الصدر؟ اليوم اشترتْ موديلاتٍ عديدةً بتبطينٍ داخلها، وأُخرى بخرزاتٍ ملوّنةٍ مُلتمعة وجميعها مزينةٌ بدانتيل على الجوانب. لم تدرِ راوية ما نفعُ الاهتمامِ بصدرٍ لم يُمسكه أحد. والحقيقةُ أنّه لُمس مرةً واحدةً فقط. ذلك اليوم حين كانت ذاهبةً إلى مدرستها صباحاً ومرّت بشارعٍ جانبيٍ كي لا يفوتها موعدُ الحصّة الأولى. هجم فجأةً من على يمينها شابٌ بعينينِ منتفختينِ كأنّه استيقظ للتو، مرتدياً بيجامةَ النوم. كان ذاهباً لشراءِ ربطةِ خبزٍ ساخنٍ ربما. لكنه حينَ رأى راوية مستعجلةً راكضةً بثدييها الفاتنين بدا وكأنّه فكّر في أنّ هذا أشهى من الخُبز. أمسك بكاملِ قبضتهِ نهدَها الأيمن وعصره. ثمّ هرب مذعوراً حين بدأت بالصراخِ فزِعةً، أو رُبما متفاجئةً، مُباغَتة. تظنّ أنها تحلم. أسبابٌ عديدة كمِنَتْ وراءَ تلك الصرخة. بعد هذا وقف في الرّتلِ أمام الفرن – ربّما – فيما بكتْ راوية في حماماتِ المدرسةِ بسبب ذلك الانقضاضِ الذي فضّ بكارةَ صدرِها والشعورِ الإباحيّ الذي عكّر صباحها. مسحتْ عن صدرها كلَّ أثرٍ لذاك الجائعِ ذي البيجامةِ القطنيةِ المُبقّعة. مسحتْ وعضّتْ على المحارمِ المُبلّلة في يدها. وكلّما دخلتْ فتاةٌ حَبَسَتْ أنفاسَها وراءَ البابِ وانتظرتها حتّى تتبولَ أو تُدخّن سيجارةً أو تضعَ القليل من الروجِ، ثم عادت تشهقُ مع خطواتِها المُبتعدة. تخيّلتِ الشابَّ وهو يقضمُ الخبزَ الساخنَ ويتمعّنُ في أثَرِ أسنانهِ على الرغيفِ، ثمّ يبتلِعَهُ حازاً فيما هي تبتلع دموعَ حدادِها على عذريّةِ صدرِها الذي لمّا يُتِمّ بزوغَهُ كاملاً بعد.

أخرجتِ السوتيانات. كنزتينِ وبعض العقودِ وزوجَ أقراطٍ صغيرة. علبةَ كريمٍ للجسم ومشايةً جديدةً للبيت. وقفتْ أمام المرآة وأخذت تجرّب المقاسات. حطَّتِ الكنزةَ الصفراءَ فوق صدرها وتمايلتْ كسنبلة. الرقمُ ثمانون لعنةٌ حقيقة. إنّه علامةُ رسوبها في امتحاناتِ الإغراء وإخفاقِها في النضوجِ والكِبر مثلما يجب. من أين جاؤوا بهذه الحساباتِ التي لا تزيدُ ولا تتغير؟ لو أنّ مقاسها يصبحُ خمسةً وثمانين، أو تسعين، لوجدت موديلاتٍ أكثر وخياراتٍ أشدَّ تنوّعاً من هذا الثمانين، وكأنّه مقاس ثديٍ مبتور.

كلّما وقفتْ راوية أمام المرآةِ هجمتْ على نفسها. عضّت ثيابَها المُنعكسةِ بحسرة. جرّبت كُلّ حركاتِ الوجهِ من عبوسٍ وابتسامٍ أو بغضٍ وطيبة. ما توقفت عن شراءِ الأزياء مذ أتت إلى هُنا، حتّى إنّها احتلَّت تدريجاً مساحةَ الغُرفة كُلّها بأغراضها. أصبحت أمتعتها فيضاناً يصلُ حتى سريرِ رفيقتها التي لا تُمانع. لا تردُّ ولا تنزعجُ ولا تجادل. تخبّطتْ راوية دوماً في فيضانها محاوِلةً العومَ بين قطعِ القماشِ فيما رفيقتُها نائمةٌ بسكينة، مكتفيةٌ بكنزتينِ وجاكيتٍ واحدة وشالٍ طويل. خفيفةٌ طافية. هذه الرفيقةُ التي لم تعرف عنها الكثيرَ حتّى الآن لأنّها لا تتركُ في ذهابها خزانةً مليئةً بالأغراضِ بإمكانها نبشَها ونبشُ صاحبتها معها. صديقةٌ قليلة. صديقةٌ لا تنظرُ في المرآة أبداً. لهذا، فإنّ راوية تهجمُ بخشونةٍ وغضبٍ، كلّ مرّةٍ، على نفسها.

كان هذا النهارُ استثنائياً. فرغمَ الضبابِ الذي ظلّ مكوّماً فوق صدرِ المدينةِ حتى الظهيرةِ، شعرتْ راوية بأنّ باستطاعتها اليومَ تقبُّل أي شيءٍ جديد. طافَتْ بجنونٍ بين المحالِّ كي تخلقَ لنفسها هواية. هوايةً لأجل لا شيء. لا يمكن أنْ تبقى مجوّفةً على هذه الحالِ كأنبوب. صفيرُ الخَواءِ، الفراغِ، يطنُّ في رأسها ويكاد يُفقِدُها وعيها.

مستعدّةٌ لتقولَ إنّ هوايتها هي طيّ الثيابِ التي جرّبتها السيداتُ في المحلّ ثم رمينها بلا اهتمام. أو إعادةُ الأحذيةِ التي قيستْ ثم جُمّعتْ في الزاويةِ، إلى رفوفها. حفظُ طرقاتِ المدينةِ التي يحتاجُ الناسُ إلى خرائطَ حتى يجوبوها. أيّة هواية قد تفي بالغرض وتنسيها هذا الوقتَ المارّ كضربِ سياط.

غرفةُ السّكن تبدو أحياناً كقفصِ فأرٍ مُجهّزٍ ضدّ الملل، داخله أراجيحُ مُصغّرة ودواليبُ يتسّلى الحيوان بتدويرها. سريرانِ خشبيانِ فوق بعضهما متّصِلانِ بسلّمٍ خشبيٍ عريضةٌ درجاته. غُطيت الأسرّة بشراشفَ متناقِضةٍ تماماً مع بعضها. وفيما ابتاعتْ راوية شرشفاً جديداً قطنياً لكسوةِ سريرها وغطاءً لحافٍ منقوشةٌ عليه مُثلّثاتٌ بألوانٍ مُتعدّدة، اختارت رفيقتها واحداً رمادياً سادة وقد امّحى اللونُ قليلاً من أطرافهِ. دائماً ما تتركهُ مُسدلاً نحو الأرضِ مُغطّيةً قدماً واحدة تاركةً الأُخرى حرةً في الهواء.

ثم طاولةٌ مُربَعةٌ في الجهة الأُخرى، مصنوعةٌ من البلاستيكِ، قابلةٌ للطيّ. عليها مزهريةٌ زجاجيةٌ تُقحِمُ فيها راوية أزهارَ توليب تشتريها من الدكان. حولها كُرسيّان بلاستيكيّان أيضاً. بيضاوانِ إلّا أنّ الغُبار تركَ عليها مِسحةً سوداءَ في أمكنةٍ مُتفرّقةٍ منها، حتّى أرجلها، وعلى ظهرهما نقوشاتٌ مُفرّغةٌ بشكل مُربّعاتٍ صغيرةٍ دقيقة.

في الزاويةِ برّادٌ صغيرٌ أبيضُ اللون تقشّر طلاؤه في أماكن عدة. فوقه صحنانِ مُقعَّران وبعض الشوَكِ والملاعقِ والسكاكين، كأسٌ صغيرةٌ ومصاصةُ متّة. كوبانِ لشُربِ القهوةِ كُلٌّ بلونٍ. كُلٌّ بحجمٍ.

وسطَ الغرفةِ نافذةٌ بزجاجٍ سميكٍ وعتبةٍ من السيراميكِ تضع عليها الاثنتانِ كُلّ مرةٍ فوضاهما الموقّتةَ من أقراطِ أذنٍ يجب إعادتها إلى مكانها، أو هاتفٍ تجبُ إعادةُ شحنه، أو ملقطِ حواجب يجب تعقيمهُ في ما بعد.

تفَتَّحتِ التوليباتُ بالتدريج ومالتْ مُستندةً إلى بعضها وكأنّ التفتّحَ أتعَبَها وأثقلَ كاهِلَها. لطالما انتقدتْ شهيناز تلك التوليباتِ واشتكتْ من أنّ لجذوعها رائحةَ عفونةٍ، لكنّ راوية كانت تشعرُ بأنّها في المحالّ، بأكياسها الملفوفةِ على شكلِ مخاريط، تناديها، فتشتريها.

فردتِ المشترياتِ جميعها ووزّعتها على الطاولةِ في منتصفِ الغرفةِ كي تتفرّجَ على تفرُّقها الجميلِ ذاك. عنقٌ أملسُ مزيّنٌ بعقدٍ. كاحلٌ ناعمٌ بجواربَ شفافة. جسدٌ حليبيٌّ ناصعٌ كعلبةِ كريم جديدة، وقفت أمامها وحادثتها همساً.

قد يشعرُ القادمونَ الجدُدُ بالوِحشةِ والغربةِ والفقر. إنّهم مُمتهنونَ موجودونَ فقط لتضغطهمْ وتدهنَ يديها بموجوداتِ أحشائهم أو كي تُعلّقهمْ يتدلّون دونما استراحة إمّا في خزانتها أو على رقبتها. قد يبغضونها إنْ هي عاملتهم باستخفافٍ ولبستهم وخلعتهم بلا امتنان. هي شعرتْ بهم، منذ اللحظةِ الأولى لتكوينهم. من أصغرِ قطعةٍ رُصّعت العقود بها إلى أولى تراكيبِ المزيجِ الكريميّ المُعطّر.

عرفتْ أنّهم ما زالوا مُبتدئين. هشّين صغاراً أمام ما صُنِعوا لأجله.

استقبلتهم مالِكتهم الجديدة.. راوية.

كان ابن الجيرانِ المثقفِ ينهرُها قائلاً: «ليس لكِ من اسمكِ نصيبٌ يا راوية، ما هذا؟ أنتِ لستِ قادرةً حتى على روي نكتةٍ سمجة. من أسماكِ راوية؟ أعتقد أنّك سُميتِ بحكمِ العادة باسم ممرضةِ أمك أو عشيقة والدكِ، أو على الأرجح باسم عمتكِ الميتة».

رُبما لأنّ كُلّ ما ترويه مُفككٌ. قِصصها عجينٌ طريٌ تلتصقُ فيه أحداثٌ بلا معنى وهو يُدوِّرُ ويُرق. كانت فاشلةً في ابتداءِ القصة واختتامها وكأنّها ليست قِصتها. تتخبّط وكأنّها لم تكن فيها. وقد أحضر ابن الجيران مرةً ورقةً وقلماً وصار يشرحُ لها كيف يمكن للمرءِ

أنْ يصف لأصدقائهِ واقعةً حدثت له من دون أنْ ينفروا ويتهرّبوا من الاستماعِ إلى الجمل الركيكة المُتفرّقة.

الأمرُ لا يمكن احتواؤه بورقةٍ وقلم. شرحَ وشرحَ مُتهرّباً من النظرِ إليها ولم تفهم راوية. وبقيت بلا نصيب لها من اسمها.

خمسُ درجـات، صعدتها حتّى وصلتْ إلى سريرها. سريرٌ بطبقتين لرفيقتينِ لا تلتقيانِ إلّا مُصادفةً، إذ إنّ فرقَ التوقيت بينهما كقارّتين. الليلُ والنهارُ بينهما متفاوتٌ. تستيقظُ إحداهما لتنام الأُخرى. أحياناً تشعرُ راوية بقفلِ الباب وهو يُحلّ أوائل الفجرِ وتلتقطُ أذناها حتّى في أعمقِ مراحلِ نومها حفيفَ الملابسِ حين تخلعها شهيناز عنها. وجلجلةَ الماء في حنجرتها وهي تشرب كأساً تروي ظمأها، ثم اهتزاز سريرها وهي تحطُّ جسدها في الأسفل وتتغطّى.

كأنّها حلمٌ صوتيّ. نسيسٌ خافت. خمسُ درجات مسافةُ اليقظةِ والحلم بينهما. صعوداً أو هبوطاً، هي ورفيقتها، زيتٌ وماء.

حين وصلت من رحلتها فرزوها إلى السكن كما لو أنّها بضاعةٌ برقمٍ مطبوعٍ على جبينها. اختاروا لها هذه الغرفةَ ودفعوها إلى الداخل بسرعةٍ مثلما تُسَيّرُ ألعابٌ بلاستيكيةٌ ملونةٌ على بساطٍ كهربائي. لم تكن رفيقتها موجودةً ولكن بدا لها أنّ السريرَ السفليّ محجوزٌ لها. صعدتِ الدرجاتِ بثيابِ السفر المالحةِ، المُبقّعةِ بدموع الخوفِ والقلقِ. فردَتْ جسمها المحصورَ المُكبّلَ لأول مرةٍ، ونامت.

راوية قطّة إلكترونية. تهبشُ وتخمشُ الآخرين بمخالبها وهم متوارونَ وراء الشاشة. جلست متربّعةً على سريرها وفتحتْ حاسوبها. غطى ضوءُ شاشةِ الكمبيوترِ وجهها المُربّع. من بين الوجوهِ الكثيرةِ يأتي وجهها ذو الزوايا الحادةِ ليعلن تفرّده. وجوهٌ تنحفُ، تسمنُ، تترهّل، تتشقّقُ، تتفجّر جمالاً، تتناوبُ على الشاشةِ في أكثر الصور

بهاءً من دون أنْ تصيب راوية عدوى من أي شيءٍ فيها. ابتسامةٌ عريضة، غمّازةٌ جميلة، أنفٌ دقيق. لا شيء.

وحتى هذه التي تشخرُ في الأسفل امتلكتْ وجهاً ناعماً يشعّ أنوثةً حتى وهي فاغرةٌ فاها وقد سالَ اللعابُ من زاويته. شغّلت مقطوعة Valse sentimentale لتشايكوفسكي كي تصنعَ خلفيّةً موسيقيةً لصفحتها المُكتظّة.

لا شيء من هذا يوقظ شهيناز، وهذا ما جعلها تكاد تصبح خفيّةً. ظلاً يتبدد أو قطعةَ زبدة رقيقةٍ ذوّابةٍ تحت دفءِ الأغطية. نومها الثقيل جعل راوية تفقدُ الأمل في استفزازها مرةً بضجةٍ أو صخبٍ ما يحملها على الاستيقاظ. حتى إنْ هزّتها من كتفيها تتمطّطُ ثم تعاود النوم. كلّ ما تتحدثانِ به هو بضعُ عباراتٍ حين تضع لها راوية الكحلَ مساءً. يكون وجهاهما قريبين، عينا شهيناز مقفلتين، وعينا راوية مركّزتين في رسمِ خطّ الكحلِ الغامق. كلماتٌ تُشبهُ الزينةَ الرخيصةَ. فجّةٌ بغير ذوق.

وراوية لا تحبُّ أحداً. عايرتْ نفسها وهي تتفقّدُ حالاتِ أصدقائها من حبٍّ وخطوبةٍ ومشوارٍ عائليٍّ إلى البحيراتِ القريبة. لم يعدْ مهماً ألّا يحبَّها أحد. لكن ألّا يكون باستطاعتها أنْ تحب ولا أنْ تمرّ عليها لحظاتٌ سينمائيةٌ من عيونٍ تتغامز وصدورٍ تشهق وأنْ تنام كل يومٍ بفمٍ جافٍ وتستيقظَ صباحاً ولا يرى أحدٌ تكشيرتها؟!، ذلك أمرٌ بغيض هزَّ أركان وِحدتها وجعلها تجهلُ جدوى كُلِّ ما تفعلهُ.. في داخِلها اهتياجٌ مجنونٌ لا تعرف كيف تُظهره. في فمها، في لسانها، نداءٌ للقُبل لم يُسمَع بعد. كل الشباب الوسيمين الذين صادَفتهم اكتفوا بإلقاء تحيّة الصباح عليها فقط. في داخلها، كانت تشتم الصباحَ الكامدَ المصقولَ كرصاصةٍ في البدنِ تتوقّف بعدها الحياة وبقيّة التحيّات.

يومُ الأربعاء يُحيّيها الرياضيّ الشاب ثم يعدو كهاربٍ من لِصّةٍ بينما تراقبُ ابتعادهُ فاتحةً كفَيها الخاليين للهواء. يوم الخميس، يُحيّيها أحد المنتظرين في موقفِ الباص ويدير وجههُ نحو الناحية الأُخرى ملتهماً سندويشةَ الجبن في يده، كأنّ راوية فأرةٌ تخطفُ الجُبن أو حاسِدة ستوقعُ السندويشة بنظرةٍ من عينيها. تصعدُ بعدها إلى الباص وهي تبلع ريقها ساخطةً.

أمّا أكثرهم وسامةً فهو الذي يوزّعُ البريد يوم السبت. تقفُ راوية عند الباب مُتظاهرةً بأنّها تنتظر بريداً مهمّاً يُحدّد مسير حياتها فيأتي الشاب بلباسه الأصفر ودرّاجته المحشوّة بالرسائل. يُلقي تحيّةً مُغلّفةً بمظروف وابتسامةً من فمٍ مختومٍ بالشمعِ لا يكاد يُفتح. يضع الرسائل لأصحابها ثم يبتعد عنها قلِقاً. كأنّ راوية حمامةٌ تهجس بالرسائلِ وتودُّ أنْ تحطّ وتلتقط إحداها بقدميها. سريعاً يقودُ درّاجته وتقفُ راوية إلى جانب البابِ. يراها الداخلون والخارجون. يمرّون بها كرسالةٍ مرميةٍ لا تخصُّ أحداً.

الوجهُ المُربّعُ لأمّ تشطفُ السطح كُلّ يوم. هذا ما أعطته إياها الحياة. الماءُ الذي عبّأتهُ أمها في السطل ثم صعدت إلى السطح ورشّتهُ، ما زال يتدفّقُ في عينيّ راوية. كلّ المماسحِ المهترئةِ تشبه كفيّ راوية. ما جدوى شطفِ السطحِ يا جيهان؟ كانت راوية تقولُ لها، وتلك تمتعض. هذا ضروريٌّ بطريقةٍ لا يُمكن شرحها، تجيبها.

إنّ من يحيّونها يرون في عينيها كل ذلك الهباءَ الذي كانت أمها تشطفه، فيبتعدون كي لا يصيبهم البلل.

أشعلت سيجارةً ثم نزلت ووضعت إبريقاً على الغاز. أصبح صعباً عليها أنْ تجد كمياتٍ كافية من المتّة، فوضعت ملعقتين صغيرتين في الكأس، اقتصاداً، ودقّت فوقهما حبتي هالٍ. فتحتِ

النافذةَ كي يتجددَ الهواء. حملتِ الكأس والإبريق معاً على صينيةٍ وصعدت برشاقةٍ فيما احترقتِ السيجارةُ في فمها ناثرةً رمادَها.

اليوم استلمت الراتبَ الأخيرَ لهذه السنة. اقتطعتْ منه خرجيةً لأمها وأخويها الصغيرين، والبقية لها، لسجائرها وسراويلها الداخلية. أحياناً يكفيها الراتبُ وأحياناً أُخرى لا، فتقلل عدد السجائرِ أو تشربُ كأس المتةِ نفسه ليومين. أحياناً تأكل أشياءَ باقيةً لمّتها من الخزائن، فيكون الغداءُ قطعتي بسكويت وحبة شوكولا، والعشاءُ طنجرة فوشارٍ كبيرة، والفطورُ قهوةً مع نصف تفاحةٍ. مالٌ قليل، لكنّه يعني شيئاً واحـداً: إنّـه لها، تبددهُ على مزاجها. تسمحُ لشهيناز أنْ تأكلَ من طعامها أو لا تسمح. تُنقص الخرجيةَ لجيهان أو تزيدُها. تناولُ عازفي الموسيقى على مفارقِ الطرقاتِ فكَّاتٍ لأجل أنغامهم أم تحاسبهم على نشازهمْ وتمرُّ من دون أُعطية. ذلك شأنُها. تعبثُ بها تطويها تُخبئها أو تنثرها بين أشياءِ الغرفة. ذاك شأنُ مزاجها، وجنونها.

ارتفع صـوتُ الجلبةِ في ممـراتِ السكنِ، فقد اقترب موعد الغذاء. طرقَ بعضُ الأولاد الباب ثم هربوا راكضين ضاحكين وسمعتْ راوية صوتَ الأمهاتِ ينهرنهم. ستةُ شهورٍ في هذا المكان كانت كافيةً لها كي تعتاد على هرجٍ يُقحَم في مكانٍ كئيبٍ كهذا. مأوى للهاربينَ لا يُمكن الهربُ منه. ملجأٌ من الحياةِ المُخيفة يبدو، بممراته الضيّقة المعتمة وغرفهِ المُكتظّةِ بأبوابٍ مُشرعةٍ دوماً، مخيفاً أكثر منها حتى.

تبدو مُلاحظاتُكِ يا راوية مُضحكةً أحياناً وكأنّكِ نسيتِ من أين أتيتِ. في أيّة حارةٍ طينيّة وُلدتِ، ووراء أي بابٍ تربَّيتِ.

استمرَّ الطرقُ والركضُ والضحكُ والنهيُ، في رأس راوية. نزلت ووضعتْ الصينيةَ على الطاولة. لملمتْ أغراضها من على الأرض ورتَّبتها في خزانتها بقدرِ ما استطاعت. قرّرت أنْ تستلقي قليلاً حتى تكون مُشرئبّةً، مُستعدة لشهيناز عند استيقاظِها. صعدتِ الدرجاتِ

الخمسَ مرة أخرى. ظلّت تعيدُ في ذهنها إيقاع الموسيقى. أمسكتْ صدرها بيديها وتلوّت بجسمها تحت الشراشف.

«يا له من شرهِ قاطعُ الطريق ذاك. هناك الكثيرُ من الخبز. أين هم الجوعى مثله، أين؟»، قالت راوية.

***

«كان لديّ يوماً منبّهٌ أكرهُ ضبطه»، قالت شهيناز وتكوّرتْ تحتَ الغطاء. نزعتْ عن عينيها العصابة السميكة التي تستخدمها لحجبِ الضوءِ عن عينيها من أجلِ نومٍ أعمق.

«حتى شكلهُ كان قبيحاً وعلا الصدأُ جرسَه»، قالت والعُصابةُ على جبينها. مدّت راوية رأسها نحو الأسفل. انسدلَ شعرُها وتأرجحَ. امتعضتْ شهيناز من البرد المقبل من الشباك المفتوح وتمسّكت بالغِطاءِ أكثر. «لا تبدين مختلفةً حين أنظرُ إليكِ رأساً على عقب»، قالت راوية. «الناسُ في الطوابقِ العليا يتكلمون دوماً بترفّع»، أجابت شهيناز. «سوى أنّ ألماستك تنزف»، أردفتْ راوية. جلستْ باستقامةٍ ثم نزلت الأدراج ومشت نحو النافذة. أغلقتها. جلستْ شهيناز ببطءٍ مخافةَ أنْ يرتطم رأسها بسقف السرير كما في كُلِّ مرّةً.. فركت عينيها ومسّدت شعرها ثم تلمّستِ الألماسةَ بحذر. جلستْ راوية القرفصاءَ إلى جانب حافة السرير. «أين كنتِ البارحة؟»، سألتها وهي تلفّ خصلاتِ شعرها بأصابعها كأنّها تتوقّع حديثاً طويلاً. رفست شهيناز الغطاءَ وتدلت قدماها من حافة السرير. «في الشارع»، قالت فيما رأسُ راوية قريبٌ من فخذيها.

كلمةٌ واحدة كافية لابتداءِ قِصةٍ وإنهائها. الشارعُ الذي تحومُ فيه شهيناز يشغلُ راوية ويشعل خيالها، إذ إنّها لم تعرف قبلاً أحداً تماهى مع الشارع وبقيَ لصيقاً به كرفيقتها هذه. حتى أنّ وسائدها

وأغطيتها عبقةٌ بروائحه. وجهُها الذي استيقظ الآن ما زال نائماً، في زواياهِ المظلمة.

«ألم يقولوا لكِ إنّني بنتُ شوارع حين أتيتِ إلى هنا؟»، قالت ثم اقتربت منها أكثر وهمست: «أُحاول أنْ أكتشفَ هذه الشوارع الجديدة حيث سنعيشُ طوالَ عُمرنا». قهقهت وثبّتتْ صدرها بيديها فيما بقي الدمُ متخثراً حول ألماسة أنفها مُشكلاً دائرةً بحوافٍ غيرِ منتظمة.

هي بقيتِ البنتَ ذاتِ الرئتينِ المتجمدتين بهواءِ الحارةِ العفنِ حيث عاشت، والتي غاصتْ في هالاتِ الدخان. لم تفهم تماماً غرامَ الشوارعِ هذا وهي التي ما زالَ الزُقاقُ الفقيرُ يحاصرها كقماطٍ مشدودٍ على جسدها الغضّ، بنظراتِ الساقطين وروائح الطبخِ، والحُفَرِ التي يقع فيها المرءُ حتى لو انتبه إليها، حتى صارت ترى حُفراً في كُلّ شارعٍ تطأه، هي تشعر بمشطِ رِجلها حين يعلقُ فيها مع كلّ خطوة. لا بُدّ أنّ رفيقتها ترى شيئاً مُختلفاً. حُفراً مردومةً وأزقّةً تتمدّد، تتوسّع.

– واليوم أيضاً تذهبين؟ ابقي معي.

– اليوم وكلّ يوم.

– الازدحام شديدٌ والبرد قارس.

– هذا ما تحبه شهيناز.

رتّبت لها راوية فِراشها. سخّنت لها الماءَ في الإبريق وحضّرت فنجانَي قهوة على الصينية.

«إنّها تبصقُ بسعادة»، تمتمتْ حين سمعت صوت ماء المغسلةِ المتدفقِ وغسيل شهيناز لوجهها. نظّفتِ القذارة بهدوء من دون ذلكَ الفركِ اللعينِ الحادِّ الذي تفتعلهُ راوية كي تنظفَ الرؤوسَ السوداءَ والحبوبَ الملتهبةَ من وجهها. لا بد أنّها فتحتِ الصنبورَ على آخره كي ترشَّ بقايا النومِ وتطردها من عينيها. صنعت راوية القهوةَ على

السّخانةِ الكهربائيةِ وصبّتها. وضعت قطع بسكويتٍ في صحنٍ صغيرٍ على الصينية. هذه الشهيناز أتت من حيثُ أتت. لا يهم.

لكن.. أحياناً تشتدُّ على راوية التساؤلات. حين يقطعُ المرء البحارَ ويصلُ سالماً عليه أنْ لا يتوقّعَ أنّه نجا من دوّاماتِ النفسِ التي تدورُ وتدور. لا تعرفُ لماذا تراقبُ شهيناز هذه وكأنّها الكائنُ الوحيد الذي تراه. إنّها تتحدثُ دوماً إلى الجارِ الذي يُنزّه كلبه الصغيرَ كصوص، وتتبادل الرسائلَ مع معلّمةِ اللغةِ التي درّستها صفّين متتاليين، وفي استراحاتِ الطعام يجالسها عِرفان الشّابُ باردُ القلبِ ويأكلان معاً دونما شهية. نعم. عديدون ممّن صادفتهم في طريقها إلى هُنا وشاركوها عناءَ الرحلة ما زالوا يتواصلون معها ويطمئنون إلى أحوالها. رغم هذا، فهي منشغلةٌ بشهيناز. إنّها تطنّ كالنحلةِ في رأسها كأنّما لتقول لها إنّها تصنعُ من العسلِ أشهاهُ.

– يا للذوق، أنتِ حقّاً طيبة.

التهمتْ شهيناز كل البسكويت في الصحن وتجرّعتِ القهوة بسرعة. قامت وبخّت القليل من معطّر الجسم. رائحةُ إبطها مُزهرةٌ، امرأةُ الشوارع هذه. «غداً. آخذكِ معي»، قالت لها.

التمعتْ عينا راوية. ركضتْ إليها وهي تُخرج ثيابها من الخزانة. أمسكتها من كتفيها.

– إلى الشارع؟ سألتها ونظرتْ في عينيها.

راوية أطول منها بقليل لكنّها أكثر نحولاً. لم تنظر شهيناز إليها لكنّها أجابت:

– غداً حفل رأس السنة. نعم. سترمين بنفسكِ معي في الشارع.

– أنا! أنا! قالت راوية ضاحكة، وأضافت: ماذا يفعلونَ هنا في حفل رأس السنة؟

– يُمَثلون، أجابتها شهيناز وصنعتْ حركاتِ تهكّمٍ بوجهها ثم ضحكت. يتصنّعون الابتهاجَ وهم لا يعرفونه أبداً.

– لا أعتقد أنّ السُكارى يُمَثلون.

– لا أحد سيسكرُ مثلنا أنا وأنتِ، غداً سترين.

خلعت شهيناز كنزة بيجامتها ولم تكن مرتديةً شيئاً تحتها. بان ثدياها ضخمين مُهتزّين وحلمتاها نافرتين غامقتين. تصنّعت راوية أنّها تبحثُ عن شيءٍ ما كي لا تنظر.

– لا تغضّي البصر. كلّه قطعةُ ثدي. جلدٌ ولحم، قالت شهيناز وهي ترتدي حمّالةَ الصدر.

صمتتْ راوية. جلدٌ يحصرُ جزءاً من الروح. لحمٌ لصيقٌ بالقلب هذا. قطعةُ الثدي التي تهزأ بها شهيناز، تُعذّب. تحرقُ الفؤاد بهزّاتِها البريئة دونما هدف. رعَتْها راوية. تفرَّجت عليها، دهنتها بالكريمات والزيوت. خافت عليها من شمسٍ حارقة أو كُتلةٍ قد تظهرُ بُغتةً. ألبسَتها أجمل الحمّالاتِ، نظّفَتها جيداً بالصابون.

رأَفَتْ بها لأنّها بكماء ولا تُحسن التصرّف أمام الرّغبات. ترتعشُ وتنقبضُ حلمتها ويُعربدُ دمُ النشوةِ فيها وتنتصبُ أمام أيّةِ فكرةٍ أو صورةٍ مُتخيّلةٍ عن مُضاجعةٍ ما. قطعةُ الثدي هذه، مسكينةٌ في سجنها بين طيّاتِ الثياب. كم بكتْ عليها راوية في الليل ثم ربتَتْ عليها حتّى ازورّت وتصلّبت.

لم تنظر راوية إلى ثديي شهيناز. منحتهما خصوصية أنْ يتنفسا على مهل ويهتزّا بكل الاتجاهاتِ دونما حساب.

– ما لون هذا المساءِ يا تُـرى؟، سألتها شهيناز ضاحكة وهي ترتدي البنطال المُبطّن.

هبّت راوية. جابتِ الغرفةَ هازّةً برأسها. تمتَمتْ:

– نعم اللون، أيُّ لون؟

فتحتْ درجَ الخزانةِ وأخرجتْ علبَ المكياجِ جميعها. فتحتها تباعاً بعصبية. تفتحُ فتظهرُ الألوان تُغلق الغطاء فيخفيها وراءه.

التمعَ اللون. اهتاجَ. برقَ، كي يقع عليه الاختيار. تلألأت أقلامُ الروج. تدفّق الكحل السائلُ وفاض. تسرّبَ من علبته. ارتجفتْ أصابعُ راوية المطليةُ أيضاً.

– ماذا تحبّين؟ سألتها.

– البارحةُ كان الظلُّ وردياً. اليوم اجعليهِ أغمقَ قليلاً، قالت شهيناز.

هيّا أغمقي وازدادي حُلكةً أيتها الألوان. أمسكتْ راوية علبةً واقتربتْ من شهيناز التي كانت انتهتْ من لبس ثيابها وتسريح شعرها.

شارعٌ مُظلمٌ مستدقّ النهاية، هو خطّ الكحلِ الذي يُثبّت أصابعها ويُثنيها عن الارتجاف. ركّزت بصرها على الريشةِ المُلتمعة ومدّت الخطّ على جفن شهيناز. ثم أبعدَ من مساحةِ العين بقليل. رسمتهُ رفيعاً حتّى يبدو، حين تفتحُ شهيناز عينيها، سلِساً مُنساباً منسجماً مع نظرتها.

الشارع الوحيدُ الذي تسير فيه راوية من دون أعبائها. تاركةً جيهان خلفها وهي تُمسك ولدينِ كُلّاً بيد. عابرةً إياه بأكثر الثياب أناقةً.

لا ترمشي يا شهيناز كي لا يتخرّب خطُّ الكُحلِ الأسود.. مستدقُّ النهاية.

وضعت شهيناز قُبعتها الأرجوانية. انتعلت جزمتها المنقوصة. لفت شالها حول رقبتها.

– ألن تنزلي معي كي تتعشّي وأفطرَ أنا؟ سألتها.

– وجبة اليوم كلّها لحم. قالتْ، ونفضتْ أثرَ البودرة والكريمات عن ثيابها.

– إلى متى ستبقين هكذا؟ حبيبتي نحن هُنا، الجميع هُنا – وصنعتْ بيديها دائرة كبيرة مشيرةً إلى مساحة السّكن كلّها – أكلنا خراءً. ابتلعناهُ بلعاً – وحرّكتْ يديها باتجاه فمها – تريدين أنْ نحزنَ على الدجاجات؟

لم تُجِب راوية بل أعادتِ العُلَبَ إلى دروجِها. أمسكتْ بعض الأشياء وعرضتها عليها.

– ما رأيكِ بدبّوس شعر؟

– لا داع.

– تحتاجينَ محارم؟

– لا.

– طيب زجاجةَ ماء؟

– لا شيء.

خرجتْ وأغلقت الباب.

حاولتْ راوية إغلاقَ بابِ خزانتها فلم تُفلح. طوتْ بعضَ الثيابِ الجديدةِ ونسَّقتِ الأحذيةَ فيها، لكنّ هذا لم يُجد. الأسبوع المقبل ستردُّ حمّالاتِ الصدرَ الجديدة، جميعها، إلى المحل. تلك المطرّزة والأُخرى المُبطّنة. التي تُقفلُ من الأمام أو ذاتُ الشرائط الشفافةِ أو المعقودةِ خلفَ الرقبة. ذاتُ قلبِ الحبِّ البلاستيكيِّ المُصغّر والمُلصقِ في المسافةِ بين النهدين أو المُزيّنةُ بخرزٍ لمّاعٍ على كامل مساحتها.

كلّها لم تعجبها، لم تعجبها...

***

الليلةُ الأخيرة.

بالكاد استوعبتْ ساحةُ المدينةِ ذاك العددَ من الناس. تأرجحوا كأنّهم مُجتمعونَ معاً على أرجوحةٍ واحدة. رفعوا الأنخابَ بأيدٍ متفاوتةِ الطولِ والارتعاش. إنّهم موجةٌ ضامِرةٌ مسحوقةٌ بالكادِ ترتفعُ عن سطحِ الماء، في كُلّ الأيّام، وأخرى ترغي وتزبدُ وتتعاظم، في الليلةِ الأخيرة. إنّهم مآتمُ في كُلّ الأيامِ وكرنفالاتٌ في الليلة الأخيرة. اندسّت شهيناز بين الجموعِ ولحقتها راوية المندهشةُ وهي تتلفّت إليها كل حين بشكرٍ وامتنانٍ صادقٍ على رميها لها في أحضانِ الساحةِ المُسْكِرة هذه.

نخب من سترفعُ شهيناز اليوم؟ رفعتْ زجاجةَ البيرة عالياً وصرختْ متمنية أنْ يتمايز صوتها عن عويلِ الناسِ حولَها مكرّرةً اسماً واحداً، مدفوعةً بجنونٍ كي تعيدهُ وترّدده. ولو أنّها تتكلّمُ اللغةَ الأجنبيةَ لطلبتْ من المُحتفلينَ أنْ يصرخوا معها كما لو أنّهم ثلّة من العساكر. هيّا. إنّه نخبُ قتيبة. قتيبة الوحشيّ. ربيبُ الكهوف. لَقادتهم كجوقةٍ وطالبتهم بتلحينِ الاسمِ. ومن ثَمَّ أعطتهم إيعازاتٍ على وقع طبولٍ وأبواقٍ كي يرددوا: نخب قتيبة.

واحتفالُ هذه السنة ليسَ كاحتفالِ السنةِ الماضيةِ أبداً. تغيَّرَ طعمُ الأنخاب. اشتدَّ لسعُ الكحوليات المُختلطة لباطن فمها. بعد قليل، عندما تدقّ الساعةُ مُعلنةً حلول العامِ الجديدِ، ستغبُّ شهيناز شيئاً من روحِ قتيبة مُذهِبةِ الوعي، الباعثةِ إلى الغثيان، وترفعُ نخبه أيضاً.

دفعها بعضهم. ناورتْ بينهم. لا مُقدّمةَ لهذا التجمُّعِ وليست تسيرُ باتجاهِ خشبةِ مسرحٍ أو حلقةِ استعراض، إذ إنّ الحفل هو عبارةٌ عن مكبّراتِ صوتٍ تذيع أغاني، تحلَّقَ النّاسُ حولها. ودّت فقط أنْ

تشقّ صفوفهم المُنتظمةَ هذه وتُحرّكَ قليلاً تكتُلَهم الرتيبَ هذا مُستخدمةً راوية أداةً معها أيضاً.

لحق بهما فهد وقد ابتاع زجاجاتِ بيرةٍ باردةٍ قدّمها إليهما بلطف مُلصقاً كتفيه بجسمِ راوية التي حاولت الابتعادَ عنهُ والاحتماءَ بشهيناز. فتحَ الزجاجاتِ بالفتّاحةِ التي يُعلّقها في خصرهِ دوماً مع مفاتيحهِ. ضحك بسذاجةٍ مع كُل غِطاءٍ تطاير.

كان الازدحامُ شديداً. أشكالُ المُحتفلينَ متفاوتةً مختلفة. شبابٌ بشعورٍ طويلةٍ مفرودة وبناتٌ بشعورٍ قصيرةٍ للغاية. فساتينُ وعطورٌ وأجسادٌ ترجُّ وتبتهجُ مع الموسيقى. أحدهم كان حافظاً كلَّ الأغنيات. شرِبَ من كأسٍ وردّدَ الكلماتِ بصوتٍ عالٍ. كان واضحاً أنّه لم يأتِ مع أحد.

تفرّست فيه شهيناز كأنّها منجّمةٌ تتعرفُ إلى تاريخ الشخصِ من عينيه. إلّا أنّها مُتخصصةٌ بتاريخٍ من نوعٍ آخر. لو لم يذهب حاملاً زجاجته ليقف بعيداً، لعرفت إنْ كان مُرتبطاً أم لا. أو شكلَ التي يُحبّها. ولو عزمها على رقصةٍ مثلاً لقرأتْ من تتابعِ ضرباتِ قدميهِ وطريقةِ رقصهِ ما الذي يحبّه في النساءِ وكيف يأتيهنّ. عنيفاً أم رقيقاً حنوناً. ذلك أنّ عينيها قادرتانِ على غربلة الثيابِ التي تسترُ والوصولِ إلى الجسد، إلى عريه الذي لا يمكن أنْ تُعرف حقيقةُ الشخصِ إلّا به.

وكأنّها جرّبتهم جميعاً. ذاك الخمسيني ذو الكرش المندلقِ والآخر الأشيبُ الذي وقفَ قبالته. يميناً وشمالاً، كأنّ شهيناز ضاجعتْ هذا الحشدَ كلّه. كيف يمكن للمرءِ أنْ يتخلصَ من شعورِ الأُلفةِ القويةِ هذا مع الأجساد؟ لماذا شعرت، رغم أنّها لا تفهم ما يحكونه ولا تُصغي ولا تتفاعل، بأنّها تعرفُ عنهم شيئاً سرّياً، إنّهم في لحظةٍ ما من هذه الحياةِ كانوا ممتنين لها، وإنّها في لحظةٍ ما طرقتْ أبوابهم جميعاً

ودخلت غرفهمُ المدفونةَ تحت الأرضِ وفتحتْ صناديقَ أجسادهمِ الموصدة؟

هذا لا يكادُ يُصدّق. قتيبة هو السبب. هو الذي حوّل كلّ ما تفعله إلى حِرفة.

لو أرادتْ لجلبَ لها فهد كُلّ أخبارِ قتيبة الآن. ماذا يفعل ومع من يحتفلُ وكيف سارتْ حياته. ما حلّ به منذ تركتهُ، أو تركها. لكنّها ما عادتْ تسألُ ومنعتْ فهد من الحديثِ بالموضوع، إذ إنّها اكتفتْ بما عرِفتهُ وشهِدتهُ. لن يحصل مع قتيبة المزيدُ بعد الآن. شهيناز كانت الذروةَ في كلّ شيء.

لن تتمكن أيّةُ وَاحِـدَةٍ ممّن سيعرفهنّ بعدها من فهم غُربه ومحاورته كما فعلت هي. لن تنسى حين رمقها أحـدُ رجاله وهي خارجةٌ من عنده، للمرّة الأخيرة، بنظرةَ ندمٍ عليها وأسفٍ على بابِ السيّارة الذي سيُغلق ولن يُفتح لها بعد الآن. لقد كان ذلك الحارسُ أميناً. أمّه طبّاخة قتيبة في بيته.

المهم أنّ شهيناز هي من حضَرتْ موائدَ النشوات.

. تمايل ثلاثتهم مع الموسيقى. اكتفت صديقتُها الصبيّةُ الخجولةُ بهزّ رأسِها مع الأنغام. لم تنتقل الهزّاتُ إلى ساعديها وخصرِها بل ظلّت متسمّرةً كلوح.

ابتعدتْ صديقتُها ببطءٍ عن فهد الـذي وشوشها ولـم تُجب ثم عرض عليها سيجارةً ولم تقبل. حتّى أنّه أمسك يدها داعياً إياها إلى الرقص لكنّها سحبتْ كفّها من دون أنْ تنظر إليه. نظر فهد إلى شهيناز وأشار إليها أنْ تُقنعها بأنْ تتلحلحَ قليلاً.

ليتها أيضاً تملّكت تلك القـدرةَ على دفـعِ الآثـام عنها، بهذه الصرامة. ماذا لو أنّ فهد لم يكتشفها وينتشلها من بيتها الفقير حتى تغتني؟ لو أنّها صدّته – في ذلك اليوم بالذّات – كما تفعل راوية الآن،

حين اتصل بها مُخبِراً إيّاها أنّه وجدَ لها فرصةَ عمرها وأنّها مطلوبةٌ بالإسم: قتيبة، الضابطُ العتيد، ينتظرها مساءً في مكتبه في الفرعِ.

في الواقع فإنّ رفيقتها قد وجدت كتفاً تحتمي بها. وجدت يدَ شهيناز الحاضرةَ لتشدّها إنْ قرّرت الابتعاد عن فهد. أما شهيناز وِقتها فلم يقلْ لها أحدٌ إنّ عرضَ فهد هذا محفوفٌ بالمخاطر، إنّ تلك ليست فرصةَ العمرِ بل دفنه البطيء.

هزّت خصرها وأمالتْ رقبتها متقصّدةً نثرَ شعرِها ذاتِ اليمينِ وذاتِ الشمال، ما ميّزَ من حولها براعتها وسحرَ قدّها وهي تُضفي على أغانيهم مسحةً شرقيّةً من جسمها الراقص. لطالما كان خصرُها مُبهراً. جميعُ الذين تمنّوها تمنّوا إمساكهُ كما لو أنّه عضوُ إثارة. حين لبستْ مرةً كنزة قصيرةً وبنطالَ جينز بخصرٍ منخفض قال قتيبة إنّها بدت مغريةً كما لو أنّها عاريةٌ تماماً. وها هي الآن تحاول أنْ تصرع الأغاني بالهزّ والحاضرين المنتشين بالتلوي المُبتكر، لكنَّ الجاكيت المنفوخة امتصّت كُلّ حركاتها وحوّلتها إلى فراشةٍ مسجونةٍ في شرنقتها تحاول أنْ تمزقها.

حتى فهد الذي لطالما اندسَّ بينها وبين من رقصتْ معهُ من التُّجار والمُحامين والمُهندسين كي يصفّق أو يُهلّلَ ويبلّلَ الوجوهَ بلعابه مُطلِقاً أصواتَ الحماس كي يكسب علاواتٍ ويُذكّر الحاضرين بنفسه ومن يكون وأنّه هو من جاء بشهيناز إلى هذا المكان، بدا الآن غيرَ عابئٍ بها ولا برقصاتها، وحين رفعتْ له زجاجةَ البيرة الفارغة لتُدَلّل له أنْ يجلبَ أُخرى جديدة أشار لها بأصابعه أنْ تنتظر وحاولَ أنْ يقوّم ظهرهُ قدرَ الإمكانِ أمام راوية كي لا ترى حدبتهُ القبيحة.

لا دماءَ في عروقِ المُحتفلينَ اليوم، قالت لنفسها. قلّةُ ذوقٍ. ضعفُ نظر.

يوم لبّت الدعوةَ كان هُناك العديد من الدماء. نعم.

مشتْ متماسكةً رشيقةً بين ممراتِ الفرعِ وتفادت أولئك المتوزعينَ على جنبيه معصوبي العينين عاريي الأقدام. مضغطتِ العلكةَ غيرَ آبهةٍ باستنفارِ القسمِ وصراخ عناصره المُستعجلين. كانت هناك دماءٌ على الأغلب. لطّختِ الجدرانَ، سالتْ على الأرضية. لكنها لم تلمحها لشدّة ما أسرعت في مشيتها.

أسرعت وأسرعت كي لا ترى. سمعتْ وأسرعت كي لا تحطَّ الأصوات على أذنيها. تعثرتْ وأسرعتْ كي لا تعرفَ بماذا تعثّرت. مشتْ كأنّما تطيرُ على بساط ولم يوقِفها أحد. لم يئِنَّ في وجهها أحد. لم تُوَجّه إليها الصرخاتُ الغاضبة التي ملأتِ المكان.

وقتها كانت تعليماتُ فهد شفوية: تمشينَ نحو الأمام. تنحرفين في آخر البهو نحو اليمين. تجدينَ باباً عليه علمٌ على طولهِ ومقبضهُ نصفُ مخلوع. تدقينَ البابَ في المسافةِ بين النجمتين. ثمّ يُفتح لكِ.

عدّلي قبةَ كنزتك وتفقّدي طقّة حذائكِ وطراوة شفتيكِ. بكل أنوثةٍ ادخلي. كما لو أنّكِ هبطتِ من السماء. كحورية تضيء الفضاء من حولها. ادخلي.

ونفّذت ما أوصاها فهد به.

حين فُتح الباب، غمرَت رائحةُ برتقالٍ مُقشّرٍ للتو رئتيها. ودخلت.

مذاقٌ جديد لم تعرفه قبلاً. طعمُ برتقالِ الزبداني وقد قُشّر بسكينِ الضابط. المغامراتُ الجديدة تبدو في البداية طيّعةً مُسليّة.

همستْ راوية في أذنها. لم تسمعها وأشارتْ لها بيديها أنّ صوتَ الأغاني هو الأكثر علوّاً. فهمت راوية وناولتها زجاجتها وقد بقي فيها نصفها. استلمتها منها شاكرةً وشربت. سالَ الشرابُ على زاويةِ فمها. نحو ذقنها. امتصَّ نسيجُ شالها بعضاً من قطراتِه. تزحلقَ بخطوطٍ دقيقة على جاكيتها.

ما عادت تهتمُّ بآثارِ السعادة هذه التي تُبقِّع الثيابَ وتتيبّسُ على الجلد. ولم يعنِها يوماً أنْ تمسحها وتزيلَ رائِحتها، فهي ستعاود الظهور.

أول ما رأت قتيبة كان جالساً وراء مكتبه. بالكاد ظهر صدرهُ لِقصرِ قامته. عبثَ بالسكينِ بقشرِ البرتقالِ. حين ثبّتَ نظرتَهُ فيها وأجلسها إلى جانبِ المِدفأة، انتفض قلبها، وعرفت أنّ النشوةَ يمكن أنْ تكون في كُلّ مكان. في أصابعَ قصيرةٍ تعبثُ بالسكين. في نار مِدفأةٍ مُشتعلة. في أوراقٍ وأقلامٍ لا يُسمح لها أنْ تلمحها. في صوتِ قتيبة المبحوحِ الذي حملها على الانصياعِ التامّ والمطلق. هكذا توزعت النشوةُ في مكتب قتيبة الصغير. مرّةً حارّة، ومرّةً حادّةً، ومرّة كآهاتٍ مبحوحة.

توقفت الموسيقى قليلاً. اقتربتْ راوية منها وقالت:

– سكرتِ أليس كذلك؟

– لا، لا، قالت شهيناز مستنكرة.

تدخّل فهد وقال:

– سأحضر زجاجةً أخرى لحبيبة القلب ولكن قلتُ ترتاحين قليلاً. لقد دفعتِ نصف الموجودين بمؤخرتكِ وخصركِ وأنتِ تهزّين.

– وأنت صفقت لها! قالت راوية وهي تضحك بحذر كأنّما ندمتْ على نكتتها.

– ومن قال إنّني لستُ سكران أيضاً ها؟

وأخذ يتصنّعُ حركاتِ هبلٍ وجنونٍ واضعاً زجاجةَ بيرة على رأسه.

– سمج والله سمج. اذهب وأحضر لشهيناز أبرد زجاجةٍ وكفى تهريجاً، قالت شهيناز.

ركض فهد متصنّعاً أنّه يولّي هارباً.

فتحت حقيبتها وأخـذت تنبش. مـرّة كُسر ظفرها لكثرة ما حفرتْ فيها كأنّها تهرشُ جسمها من حكّة.

– يا للحسرة على لون الكرز، لقد مصّه الزمن قبل أنْ يمصّه أحد. أين العِلكة أين؟، قالت.

– في فمكِ عِلكة أعتقد.. أجابتها راوية.

– راحَ طعمها. أريد واحدة جديدة.

– أنتِ جائعة، قالت لها راوية كأنّها تذكّرها.

– ألن يُكملوا الموسيقى؟ قالت شهيناز واستأنفت النبش.

– أتعلمين؟ اليوم يليق بك لونُ ظلّ العيون الذي اخترناه.

– أوه. يا لازدحامِ الأغراض، قالت شهيناز وقلَّبتِ الحقيبة يمنةً ويسرةً.

– لم تسمعيني منذ قليل، كنت أقول لكِ شُكراً.

– سأشتري حقيبةً جديدة فعلاً، قالت شهيناز.

– تعبتِ ربّما.

دنت راوية نحوها أكثر ونظرت في عينيها.

– وجدتُ العلكة.

– هناك يبيعون سندويتشاتٍ إنْ أردتِ.

– يا لطعمِ الشمّام، قالت شهيناز واضعة ثلاثَ حباتٍ دفعة واحدة في فمها.

– بعد ساعةٍ ندخلُ العام الجديد، قالت راوية.

– والحقيبة التي صارت قديمة ماذا أفعلُ بها؟ آه؟ أرميها في قمامةِ الخردة؟

– هاتِيها عنكِ إنْ كانت ثقيلة.

مدّت راوية يدها.

– إنّها خفيفة. تكادُ تكون فارغة، قالت شهيناز وهي تحرّكها للأعلى والأسفل.

عـادت الموسيقى ومـلأتِ الأرجـاء. لم تسمع راويـة جوابَ شهيناز الأخير. من المؤكد أنّها بقيت تظن الحقيبة مملوءةً بالأغراض. وإنّها جدٌّ ثقيلة.

***

ناولها حِزّاً من البرتقال. وضعته كاملاً في فمها من دون أنْ تُقطّعه بأسنانها. دفع الحزّ خدّيها نحو الخارج.

كان لقتيبة شاربٌ كثٌ وذقنٌ ناتئةٌ قليلاً. وفيما بلعتِ السائلَ شرح لها أنّ انشغالاتِه عديدة ووقته ضيّق واعتذر لأنّه أتى بها إلى هذا المكان. أما شهيناز فبقيت صامتةً تاركةً لحركاتِ فمها وهي تضغط على القطعة كي يخرج السائل منها، ولصوتِ البلعِ المثيرِ مهمّةَ الشرح لقتيبة عمّا ينتظرهُ منها. تنقَّلَ رجالُ الشُّرطةِ بين المُحتفلين كي يمنعوا أيّـة مُشاجرةٍ مُحتملةٍ ويستبقوا أيّـة تصرّفاتٍ مُريبةٍ لبعضهم. تجهّزوا بأصفادٍ مُلتمعةٍ تمايلتْ على خصورهم. الحقيقةُ أنّ رهبتهم تلك مُثيرة. شكّهم في الآخرين يُغري شهيناز دوماً بأنْ تملّكهم نفسها وتقول إنّها ستثيرُ كُلَّ شكٍّ شهيٍّ فيهم. ستُحرّك فضولهم تجاه متعٍ ممنوعةٍ خطيرةٍ كجرائم.

ولأنّ غِواية قتيبة كانت قوّته، عصرت في فمها برتقاله.

لطالما سمعت عن طُغيانِه قبل أنْ تتعرّف إليه. وفي النوادي الليليّة حين كانت تتنقّل بين أذرع الزبائن، حسدتْ أولئكَ اللواتي جلسنَ في أحضانِ الضبّاط وأحاطَتْ بهنَّ الحاشية. تاجر السيّارات نهرها مرّةً وشدّها من يدها حين ثبّتت نظراتِها على الضابط السكران وهو يقودُ حبل الدبكة.

كان المالُ الذي يُرشّ على الراقصات كثيراً ولكنّ أغلاهُ يَكونُ من الضبّاط المُترفعين الذين يُرسلون أحد رجالهم كي يرشّوه ثم يلوّحون للغانيات من بعيد، أو يهزّون لهنّ رؤوسهم.

شعورٌ مختلفٌ بسلطةٍ ما، تشعره المرأة التي ينتقيها الضابط كي يُمارس أهمّ جزءٍ من سلطته، فيها.

في ذلك اليوم فرحت شهيناز. لم تكن لقيطةً يتيمةً أو مُهمّشةً في العمل وغير مرغوبٍ فيها كي تُسعد بطلب قتيبة، لكنّها كانت تحسب نفسها من الساقطات. النومُ مع قتيبة كان رفعاً بسيطاً وانتشالاً موقتاً لها، من سقوطها.

جدّد الثلاثة زجاجاتِهم وأمزجَتهم أيضاً. انتقلتْ شهيناز من رقصاتٍ مِغناجٍ إلى قفزٍ خفيف. وكأنّ حواجز الخجل انجلتْ من حول راوية أيضاً فقررت أنْ تستلمَ دفة الرقصِ مادّةً ساقها نحو الأمام. كانت ترتدي تنورةً قصيرة ملونة وكولوناً سميكاً، وجزمةً وصل ارتفاعُ عنقها حتى الركبة وجاكيتاً قصيرة.

ابتهج فهد وصفّق. بدا من حركات شفتيه ووضعهِ لأصابعهِ بينها أنّه صفّر أيضاً. اشتدّ حماسُ الإيقاعِ في الأغنية. لم تعد شهيناز قادرةً على القفز. أشارت لراوية أنْ تأتي معها كي تقضي حاجتها راسمة بيدها خيطاً في الهواء من مثانتها نحو الأسفل.

***

البشرُ والغِزلان ليسوا سواءً. وشهيناز لا تعرف إلى من تنتمي بالفعل.

لم يعجبهم أنْ يضعوا المرحاضَ المتنقل سوى إلى جانب غزالها المضيء. وها هي تُجبرهُ على سماعِ صوت البولِ المتدفّق. ومن بعدها صوتِ تبوّل رفيقتها أيضاً. وبعدهما هناك صفٌّ من المُنتظرات.

نظرت إليه شهيناز حين خرجت فزادت أضواؤه من زوغان بصرها ودوارِها. على كلّ حال، هي ليست مدينةً للغزلان بشيء. ولا للبشر بشيء. وهي لا تنتمي إلى أحدٍ بل تتحول وتتبدل دوماً وتِبعاً للظروف.

حين ودّعت قتيبة ذلك اليوم اتفقا على موعدٍ بعد يومين في شُقّة له في العاصمة. أنْ يخابِرَها قبل ساعةٍ فتحضر. عليها أنْ تتوقع اتصاله عند منتصف الليل بعد وقت مناوباته. انتظرت مخابرته بشراسة. وقررت أنْ تتصرّف أمام وجهه البدويّ الغامض، كذئبةٍ جائعة.

بدأت مجموعاتٌ من الشباب بالتجمّع وإطلاقِ الألعاب النارية. عادت شهيناز وراوية إلى موقعهما إلى جانب فهد. ازداد التصفيقُ والهتاف فيما تأهَّبَ رجالُ الشُرطة أكثر. ارتفعت أعمدةُ الصوت واللون والدخان. فغرت راوية فاها واقترب فهد أكثر من الشباب وعرض على أحدهم قداحته بديلاً عن تلك التي لم تعد تشتعل. فاحتْ روائحُ البارودِ فيما اندفعت الألعاب نحو السماء واحترقت فيها. أضاءتها كما زغبٌ ناعمٌ للسُّكارى في الأسفل. نقطُ ضوءٍ ملوّنةٍ متلاحقةٍ لم تختفِ بسرعة. أخذت أشكالاً متفرّعة، فوضويّة، وكَأَنَّ السماء بأكملها، ملكها.

هكذا كانت أول نشوة مع قتيبة. تُشبهها تماماً..

لوّحت شهيناز للأنوار السماوية وصرخت بأعلى صوتِها. تطايرتِ الألعابُ وانفلشتْ ممزِّقةً الأغلفةَ التي كانت في ما مضى تحتويها. أشعل بعض الشباب نيراناً أرضيّةً أيضاً لتنفجرَ في مكانها مُحدثةً فرقعةً مُضحكة. تباعدَ الآخرون عنها تحسّباً لأي احتراقٍ أو لسعٍ بسيط. اقتربت شهيناز منها جذلى ووقفت في مُنتصف فسحةِ الإشعالِ وإطلاق الأعدة.

ركض فهد نحوها وشدّها من يدها فانسكب قليلٌ من البيرة على الأرض. مانعته، فشدّها بقوةٍ وهو يحاولُ الكلام بأعلى صوته. أخذ منها الزجاجة ثم رماها في القمامة. مشت شهيناز وراءه وهي تزمُّ شفتيها كأنّها زعلانة.

بَدأ العدُّ العكسي، هيّا هلمّوا. نادى النّاسُ بعضهم بعضاً. على شاشةٍ ضخمةٍ ظهرتِ الأرقـامُ بخطٍ كبير. جعل الجمعَ يهتاجُ أكثر وأكثر مع كُلّ رقمٍ يتغير.

ما الذي يمكن أنْ تعنيه هذه الأرقام لشهيناز؟ أيامٌ خلت؟ رجالٌ تناقصوا بين فخذيها؟ عدد زجاجاتِ المشروب التي ارتطمت ببعضها في أمعائِها؟ كمُ الغِزلان التي ستُلمُّ غداً؟

عشرة. ووقف فهد بينها وبين راوية. وضع يديه على كتفيهما وأخذ يتنطّط. قفزت معه الجثث المتعفّنة تحت إبطيه وفاحت رائحتها. خمسة. رفع الجميع أكُفَّهم ورفعت شهيناز يدها مُظهرةً قبضتها الفارغة من الزجاجات. ثلاثة. وفهد مصرٌّ على أنْ «يهيّص» كالجميع من دون أنْ يكون لكلّ هذا الاحتفال أيُّ معنى، حقيقةً، لدى الثلاثة مُجتمعين. اثنان. أمالتْ راوية رأسها ناحيةَ شهيناز ونظرت إليها بعينين دامعتين ثم أخذت تبكي واهتزّ كتفاها مع حركات فهد. بكاءٌ لأجل الثانية الأخيرة.

أمّا شهيناز فانتظرت الرقم واحد حتى تصرخ كالممسوسة، إذ إنّه الرقم الوحيد الذي عنى شيئاً بالنسبة إليها. رجلٌ واحد. لا يمكن للحياةِ أنْ تُكرر مثله. رجلٌ يحبُّ المفاصلَ النحيلة. يقبّل الكوع يمصُّ الركبة ويلعق مفاصل اليدين. انتهى العدُّ ففكّت شهيناز شالها من على رقبتها وأخذت تلوّح به عالياً عالياً مُقهقِهة.

***

فلنفترض جدلاً أنّه بإمكاننا نزعُ هذه النافذةِ المزروعةِ في الحائط ونقلها إلى حائطٍ آخر. إنّ إطلالتها الآن على الغابةِ الكثيفة ذاتِ الأشجارِ المُعرّاة إلى جانب السكن جميلة، لكنها رُبما إنْ أطلّت على المدخلِ الغربيّ منه ستكشفُ سكّة القطارِ السريع الذي يمرّ كل حين، والطريق المُعَبّدة بالإسفلت والمخصصة للدراجات الهوائية. حتّى السماءُ ستختلف. غطاءُ المدينة من الغيومِ المُكدّسةِ المتّصلة سيأخذُ شكلاً آخر. ثمّ إن انتزعناها مرّةً أُخرى ووضعناها إلى جانب بابِ الغرفة فستطلّ على بهوِ السكن. ما إنْ يُشرِّعها المرءُ حتّى يصادف الناس المتجولين بين غُرفهم والأولادَ الذين وجدوا في البهو فسحةً لشقاوتهم المكبوتة. فلنثبِّتْها في السقفِ إذاً، ونرَ ماذا سيحصل. سيكون مطراً آخر بالتأكيد. طبقاتُ الصقيع التي ستحطُّ عليها ستجعل المنظر مُبهماً. وهذا جميل. أينما نقلنا النافذة سنرى شيئاً جديداً.

حين استيقظت راوية آثرت البقاء في فِراشها قليلاً، وفكّرت كيف أنّ ليلة البارحة قد قدَّمت لها إزميلاً ومطرقةً وبعض المسامير، كي تبدأ بلعبةِ تغيير النوافذ تلك.

لم تشربِ البيرة قبلاً. في الحقيقة، شربتها مرّةً واحدةً فقط. فبعد أنْ وصلت إلى هُنَا، رتّبت أغراضها وصنّفت أوراقها وكُلّ المُستندات التي قد تحتاجُها ثمّ قرّرت أنْ تستكشف المكان وحدها وتُعاين السوق القريب. أعطاها برنامجُ تحديدِ المواقعِ أنّ السوقَ يبعدُ ربعَ ساعةٍ مشياً. وبعدما جالت فيه ودخلتِ المحالّ وتفحّصت البضائعَ كأنّها زبونةٌ محترمةٌ شديدةُ الثراء، قرّرت أنْ تجلس في المقهى وطلبتْ كأساً من البيرة احتفالاً بوصولها الآمن وبأناقةِ الثياب التي اكتشفتها. لم يكن طعمها لذيذاً كما كانت تظن. لو رأتها جيهان لناحت على أرض السوقِ الحجرية وأجبرتها على بصقها.

جيهان التي ظنَّت أنّ العالم كُلّهُ هو الحارةُ العتيقة. بعدها، مزحت مرّةً أنّ العالم كلّه هو بيتها المكوّن من غرفتين ومطبخ ضيّق. ولم تغيّر رأيها بل رفعت عالمها طابقين وقالت إنّ العالم كلّه هو السطح، ذاك الذي تُجفّف عليه البندورة والباذنجان وتنتزعُ الأوساخَ من المزاريب الموزعة في زواياه، كي يمرّ فيها ماءُ الشطفِ بسلاسةٍ نحو الأسفل.

«نحو شهيناز النائمة»، قالت راوية لنفسها وضحكت.

بعدها جالت في السوق لتكتشفَ أماكن الفرح التي من الممكن أنْ يلجأ إليها المرء في المُناسبات التعيسة وأوقات الحسرة فاكتشفت أنّ جميع الحاناتِ مغلقةٌ صباحاً. لكن لا بُدَّ أنّ الكاميرات المثبّتة في أعلى مداخلها رصدت يومها وجهاً مُربَّعاً لفتاةٍ نحيلة تحمل أكياساً تقتربُ من الزجاج وتنظرُ داخلاً محيطةً عينها بيدها، ترقبُ الكراسي الخاوية المقلوبة فوق الطاولات ومكبّراتِ الصوت الضخمة والرفوفَ الخشبيةَ التي صُفَّت عليها زجاجاتُ المشروب، تنفخُ بُخاراً على الواجهة الزجاجية وتعبثُ بإصبعها فوقه، تلمسُ قرطَ أذنيها وتعدّل شريط حمّالة صدرها ثم تجرُّ أكياسها، وتُغادر.

لا يمكن للعالم أنْ يتقلّص إلى الحدودِ التي وضعتها جيهان. هذا مؤكّد. إذ إنّ راوية وفي اللحظة التي وطئت فيها قدمُها القاربَ المطاطيّ وجلست فيه منكمشةً على نفسها، أيقنت أنّ الضفّة الأُخرى تستحق. اليابسةُ التي وُعدت أنْ تصل إليها سوف تنتشلُ فتوّتها الغريقة. وفي عرض البحر علتِ الأمواجُ ورفعتِ القارب ثم هبطت به. صاح الناس خائفين وبكى الأطفال من رشقاتِ الماءِ التي بللت وجوههم رغماً عن أحضان أمّهاتهم. أحكمت راوية قبضتها على سترة النجاة التي ارتدتها وتأمّلت القمرَ الخافت فوق كلّ ذلك الضجيج.

ليلة البارحة كان القمر خافتاً أيضاً، لكنّ الضجيج اختلف. قد ينسى المرءُ مع مرور الوقت ذلك الخوف الآنيّ في البحر. يدفنه ما إنْ يصلَ إلى ترابِ البلد الجديد. لقد رقصتِ البارحة كما لو أنّها محترفةٌ في ارتياد المهرجانات. لا بأس يا راوية في كُلّ هذا.. يُمكن للمرءِ أنْ يخلط الهمومَ بالرقص. يُمكن أنْ تُجبل المآسي بالأغاني الطنانة.. قد يحصلُ هذا لدى الجميع.

ذكّرها صديقُ شهيناز الذي تعرفت إليه البارحة بأولئك الشباب الذين كانوا يتجوّلون في حارتِها بقمصانٍ مفتوحةِ الياقاتِ عند الصدر، حليقي الذقون مُهندمين هِنداماً رخيصاً، روائح عطورهم وخزةٌ وأحذيتهم بشعةٌ ضخمة. كانوا يترصّدون البنات العائدات إلى بيوتهنّ كي يعاكسوهنّ في ليل الحارةِ القاتمِ وشوارعها الطينية. استغربت راوية كيف أنّ رفيقتها فوّضت ذاك الشاب ثقيلَ الدم بإدارة السهرة وشراء المشروب. كان واضحاً أنّه أتى كي يُلامسَ المُحتفلات، إذ إنّه تقرّب من راوية مراتٍ عدّة ملامِساً كتفها أو كفّها وهو يناولها البيرة. وبما أنّه من العسير عليه مُلاحقة الأجنبياتِ ومُطاردتهنّ فقد طلبَ وِدّاً من راوية المسكينة وهرّج ضاحكاً حولها كالبهلوان. هذا ليس غريباً عليها..

حارةٌ موؤودة في حيّ التضامن، عرفت فيها راوية بشراً وبهلوانات.

رنّ هاتفها الذي وضعته تحت وسادتها. رفعته نحو عينيها.

أمي تتصل.

وجه أمّها الذي التقطتْ له قبل أنْ تُسافر صورةً بدت فيها ممسكةً بحقيبة الظهر تحشرُ لها فيها كلّ ما قد تحتاجه. وراءها الستائرُ المسودّة ورفوفُ خزانة الصالون المليئة بالأغراضِ. الوجهُ الذي نال نعرةً من كعبِ روسيةٍ قديمة مصطكّةِ الأجزاءِ وظلّ مزرقّاً

لسنة. وجهُ أمّها التي بدت معتوهةً حين دفعوا بها نحو الأثاثِ وسحبوا زوجها من البيت كما سحليةٌ تُسحب من ذيلها.

وجهُ متوسّلةٍ مُدمّاة ضمّت ولديها الصغيرين أمام من تَرَكُوا البيت بشعاً كثورٍ مبقورٍ ينزف. وجه أمّها المُرتَع، ها هو الآن ظاهرٌ على شاشة تلفونها. جيهان تتصل.

– كيفك يا ماما، لماذا لا تردّين؟

– أنا هنا. كنت مشغولة، طمنيني عنكِ.

– إنْ أحببتِ السؤال عني أنا منيحة وأخواك بخير، وإنْ لم تودّي السؤال عني فلا بأس، الله يسامحك يا راوية.

– جيهان، جيهان، لا تفقديني صوابي ها؟ بالكادِ استيقظت. كيف لا أحب السؤال عنكِ كيف؟ أوف ما الذي سيرضيكِ الآن؟ فعلتُ كل شيء لأجل هذين القردين الذين أنجبتهما في آخر العمر.

– أمرُ الله وحصل. نردّه؟ ما الذي أثّرا عليكِ به، قولي.

– بالله عليكِ الآن تفتحين معي مواضيع كهذه؟ قولي لي ما أحوالكِ وكيف هي أمورك؟

– ماكينة الخياطةِ علّقت فجأة ولم تعد تعمل. أحضرتُ ابن الحدّاد فأصلحها وأخذ مني إيجار خياطةِ ثلاثة فساتين، تصوري؟ المهم، الشغلُ جيدٌ والناس ترغبُ في الخياطة الآن لأنّ الثياب غاليةٌ، والكل يريد أنْ يستر نفسه أكثر. ألمُ ظهري كالمعتادِ يزداد أياماً وأحياناً يقلّ. أخوكِ ما زالَ يعملها في ثيابه في الليل. سألتُ ابنة جيراننا التي تَدرُسُ في كلية الطب فأعطتني عنوان طبيب. قلنا له لا تخفْ يا ماما القذائفُ بعيدة.. المدافع مصوّبةٌ باتجاهٍ آخر، ولم يصدّق. قلنا له يا عيوني الرصاصُ في آخر التضامن وليس عندنا، ولم يفهم. صرتُ أهوّي الإسفنجَ الغارقَ بالبول على السطح. البارحة أمطرتْ بشدّةٍ والحمدلله يا راوية، صعدتُ الدرج بسرعة وحملتُ

الفرشة كي لا تبتلّ. والله وأحلف لكِ بأغلظ الإيمان بأنّ رائحة البولِ عشّشت في ثيابي أيضاً. إنّها لا تزول، لا تزول..

– آه. وماذا بعد؟ قالت راوية مبعدةً السماعة قليلاً عن أذنها لشدة ما كان صوت أمّها عالياً.

– المهم يا راوية، اسمعيني، أنا ذاهبةٌ غداً إلى المكتب الذي أخبرتك عنه.

نزعت راوية عنها اللحاف، وضربتْ جبينها بكفّها غيظاً، ثم قالت:

– يا جيهان، يااا مهجةَ القلب. علامَ الذهابُ قولي لي، سيعيدونه إليكِ يعني؟ سيقولون تفضلي أيتها الخياطة الفاضلة جيهان دفعتِ أربعمئة ألف وها هو زوجك سليمٌ معافى معززٌ مكرّم، ألبسناه طقماً من عندنا أيضاً؟

– هيّا استهزئي بأمكِ التي لا تعرف نفسها إنْ كانت أرملةً أم مطلقةً أم مهجورة. والله إنّي مستعدةٌ أنْ أركض كلّ العمر بين أزقةِ التضامن ووراء هذين المعتوهين حتى أعرف شيئاً عن والدكِ. في المرةِ الأولى أوصلوا له البيجاما وقالوا لي إنّهُ بخيرٍ وإنّه يسلّم علينا. والآن أريدُ أنْ أراه لدقيقتين. سأحاولُ بالمبلغِ الذي معي. قد يطلبون أكثر. لا أدري.

– لك ماما وماذا إنْ كان هذا كذباً؟ ألا تشكّين في أنْ يكون كلُّ هذا احتيالاً؟ وإنْ رأيتهِ يعني ماذا سيحصل؟ ينقصكِ بكاءٌ وعويل أنتِ. هو راحَ الآن وبقيتِ أنتِ لنا. حافظي على وعيكِ قليلاً يا جيهان. لا تجنّي ها وتبليني بولديكِ.

– أنتِ لا تفهمينَ يا حبيبةَ أمك. لا تفهمين. سترينَ أنّني على حقّ. لماذا قالوا لي في المرّةِ الماضيةِ إنّه يريد بيجامة إذاً؟ لم يقولوا

– نعم، أوصلوها إليه إلى تحتِ الأرض حيث يقبع، قالتْ راوية مستهزئة.

– لم يفعلْ شيئاً فلماذا ينصبون عليّ؟ الجماعة أوادم ووعدوني خيراً. سكرتيرُ المكتب حفظني وكل مرّة يقول هانت هانت يا جيهان. ما إن أدخل حتّى أرى ملفَ أبيكِ كاملاً أمامه.

– لم يعد لديّ مالٌ أعطيكِ إياه بعد الآن. ستخرّبين عليّ السنةَ الجديدة.

– سنةٌ جديدة «تتمهيصين» فيها وأبوكِ مفقود أليس كذلك؟

– ما أعندكِ. وأنا ماذا يا أمّ الولدين؟ ألستُ ابنتكِ؟ سفّرتني بين ليلةٍ وضحاها كي آتيكِ بمالٍ تصرفينه هكذا؟ أنا ومالي تبرأنا منكِ يا جيهان. لقد أفقدتني صوابي ها. ألو جيهان أتسمعين؟ ألو، قُطعت الكهرباء؟

قُطِعَ الخطُّ فجأة وصَمَتَ الجهاز.

«قلتُ لكِ اشتري بطاريةً كي نتمكّن من التحدث دائماً. أم أنّكِ تهتمينَ بالدفع على ذاكَ المفقودِ أكثرَ من اهتمامكِ بالاتصالِ براوية؟»

ظلّت تكلّم نفسها متصنّعةً أنّ أمّها ما زالتْ على الطرفِ الآخر...

«مرةً سألتكِ يا جيهان لماذا نزلَ لي دمٌ؟، قلتِ البناتُ ينزفن كلَّ شهر، هكذا، لأنّهنَّ بنات. وسألتكِ لماذا نبتَ لي شعرٌ هنا في الأسفل؟ إنّه قاسٍ وبشع. قلتِ البناتُ يُصبِحنَ كتلةَ شعرٍ تجب إزالته. سألتكِ لمن هذه الخيوطُ والدرزاتُ حين لم يعدْ أحدٌ يشتري منكِ وأمضيتِ الوقت تُرقّعين هُنَا وتقصّرين البناطيل الرخيصة؟ قلتِ النساء البدينات ذوات المؤخراتِ الكبيرة عليهنَّ أنْ يعملنَ أيّ شيء

كي لا يُنسَين. وماذا بعد؟ افعلي شيئاً ذا قيمة. قولي شيئاً منطقياً. هذا الخطُّ مقطوعٌ منذ الأزل. إنّه يطنُّ هكذا بلا توقّف. وبلا جواب».

رَمَتِ الهاتفَ ثم نزلتِ الدرج، بينما تقلّبَتْ شهيناز وكأنّ صياحَها قد أقلق نومها.

قضمَتْ أظافرها بالترتيبِ واحداً تلو الآخر ثمّ جابت الغرفةَ في كل الاتجاهات.

هي المفقودةُ منذ زمنٍ. هي من تبحثُ عن نفسها ولا أحدَ آخر. بصقتْ من فمها آخرَ ظفرٍ ثم توقفتْ عند الطاولةِ وأخذت تقوّمُ بأصابعها انحناءةَ أزهارِ التوليبِ الذابلة.

***

ارتدت ثياباً تُشبه ثيابَ الحداد. قميصٌ أسودُ رقيقٌ وفوقه كنزةٌ رمادية. بنطالُ جينزٍ غامق. ثم وقفت أمام المرآة.

هي تكبرُ. تشعرُ بهذا حين يلتصقُ البنطال بردفيها أكثر ويطولُ شعرُها بلا هوادة. تتجدَّدُ أظافرها المقروضةُ خلال أيامٍ ولا أحدَ يراها. لا أبٌ يحنُّ على صباها ولا محبوبٌ تنضجُ في دفءِ صدرِهِ أكثر. جسدها العفيف هذا يهرم أسرعَ من غيره. كأنّ الزمن يقاصصه على وحدته وانزوائه. مالها في ذلك يد.

غسلتْ وجهها ونظّفَتْ أسنانها ثمّ وضعت كريمَ النهار.

إنّها نضارةٌ مُشتراة. نعومةُ بشرةٍ لا تظهرُ إلّا بعد استعمال العديدِ من المساحيق. لزمها بعد الحديث مع جيهان العديدُ من المُرمِّمات والكثيرُ من الكُحل كي يزول أثرُ كلماتِها عنها. كم تتمنى لو كان بإمكانها التوقفُ عن استقبال مكالماتها. ليتها لا تحِنُّ إلى صوتِ جيهان. ليتَ زعيقها عبر الأثير يقطعُ الخطوطَ والأسلاكَ ويُخرسُ

كيف حالهُ الآن؟ كيف حالُ الوجهِ الذي حفرَتهُ مناجلُ الحزنِ في كلّ المواسم؟ كُل الصمت فيه وكأنّما خَزّنَ الكلام في مآقيهِ ولم يبُح. في العادة، تُشعلُ الأسرارُ صاحبها، تَحرِقُ ذهنهُ، تصيبُ جسدهُ بقشعريرةٍ وهي تثورُ في حبسها. إلّا أنّ أسرارَ والِدِها اعتاشتْ على هدوئِهِ واستسلمتْ مُستكينة.

ذاك المنغمسُ في كنبتهِ، سارحاً في الأفقِ الضيقِ للنافذةِ بينما جيهان تثرثرُ معَ الهواءِ وتحادثُ أواني الطبخِ والموقدِ وصحنَ الفاكهة. كانتْ نساءُ الحيّ يأتين لزيارةِ جيهان وهو موجودٌ في البيت. يخلعنَ أغطيةَ الرأسِ ويستخدمنَ الحمامَ دونما حرجٍ منه. يغلينَ القهوةَ، يضيّفن بعضهُنَّ، يصرخنَ على أخويها أمامهُ كما لو أنّهُ لا يشربُ ولا يسمعُ ولا يرى. والآن تبحثُ جيهان عنهُ بين المكاتبِ وتكسرُ ظهرها وراءَ ماكينةِ الخياطةِ كي تجمعَ مالاً لأجله.

كأنّها أرادَتْ إقحامَ رُقعةٍ في ثوبٍ ما لم يُشقَّ أصلاً ولم يُعطب.

لطالما تساءلتْ ما الذي فعلهُ حتى أخذوه. لقد عرفَ كُلّ الحقائقِ ولجَمَها عن الظهور. أخفاها في تحيّةِ الصباحِ الجاحدة التي ألقاها على أسرته دونما شهيّة. وهي لم تكن قد تعلمت بعد كيف تستنطق أباً كتوماً.

«ما بالُ هذه المساحيق، إنّها تنفد بسرعة»، قالت لنفسها.

وضعت أحمرَ الشفاه ومن ثمّ مطرّياً ضدّ التجفاف. التمعت شفتاها الرقيقتان إلّا أنّ جلدها امتصّ اللون بسرعة ولم يعد ظاهراً كما أرادته. ستشتري أحمرَ جديداً كتيماً لا يُمتصّ. لكن، لا شيء يورّدُ الشفتين، كالبوح.

كان والدها يخرج إلى عمله باكراً جداً كي يلقى سرفيساً شبهَ فارغٍ فلا يضطرَّ أن ينحشرَ في آخرَ مكتظٌ. وحين مرّتِ المظاهراتُ في حيّهم، جمعَ راوية وجيهان والولدين في غُرفةِ النومِ ثم ركض نحو

بابِ البيتِ وتركهُ مفتوحاً قليلاً. توجه بعدها إلى الغُرفة وأقفل عليهم فيها. «شققتُ الباب»، قال مُبتسماً، وهو ينظر في أعينهم الحائرة، كما لو أنّ رعشةَ انتصارٍ سرتْ في أوصالهِ. احتمى الشُّبانُ الهاربون من عناصر الأمن في البيت. على السطح، في المطبخِ الفوضوي، في الحمّامِ الضيّق. كانوا يتهامسون. رجَتْهُ جيهان ألّا يتورّط في هذا وكادتْ تنحني نحو رُكبتيه. بكى الولدانِ صدى الرصاصاتِ القريبة. لم تفهم راوية حينها كُلّ هذه المعمعة، وعجِبت من سعادة أبيها المُفاجِئة حين «شقّ» الباب..

لبست حذاءً بلا كعبٍ ثمّ أطلّتْ على الغُرفة قبل أنْ تنزلَ نحو قاعةِ الطعام. كانت مُثلّثاتُ فِراشِها مفرودةً مُرتّبةً وقد سطعَ نورٌ بسيطٌ عليها فيما غطّت شهينازُ النائمةُ نصفَ جسمها ورمت حمّالةَ صدرِها على الأرضِ من شدّة تعبها من ليلة البارحة. رائحة الغُرفة بقايا عطورٍ بالكاد تشبثتْ بالثياب. مرّةً تحدّثتا وقالت راوية إنّها يتيمة. قالتْ شهيناز إنّها أفضل من يتيمةٍ بقليل. اليُتمُ درجاتٌ إذاً، وراوية سقطتْ فجأةً في أعمق هوّة منه.

خرجتْ راوية وأغلقتِ البابَ ببطءٍ كي لا تُزعج رفيقتها.

كانتِ الأدراجُ مُغطاةً بلونِ موكيتٍ كُحليّ وفي الزوايا قضبانٌ حديديةٌ كي تُثبّته. اهترأتِ الأطرافُ وثُقبَ الموكيتُ في العديدِ من الأماكنِ. كثيراً ما تعثّر الأولادُ بالثقوب وهم يركضون ويلعبون. لا أحدَ كجيهان يُرقّع الاهتراءات. حتّى أنّها تُجمّل البشرَ المُهترئين.

نظرتْ في وجوهِ الرِّجَالِ الصاعدين. بعضهم ألقى تحيّةً خجلةً وآخرون لم ينظروا حتّى.

لامتها جيهان كثيراً بعد اختفاءِ والدها لأنّها أصبحت تحكي عنهُ صفاتٍ ليست موجودةً فيه. طبعاً كان يحكي. أكيد كان يلاعِبُكِ ويحملكِ ويُغنّجك. طلبَ من الجميع أنْ ينادوه أبا راوية حتّى بعد

مجيء أخويكِ ألا تذكرين؟ وهذه الفساتين كُلّها من اشتراها لكِ يا راوية الجاحدة؟ في العادة، لا يَذكر المرء سوى محاسنَ الغُيّابِ. راوية ركّبت شخصاً مُغايراً لحقيقةِ أبيها في ذهنها.

كان نحيلاً برقبةٍ مُجعّدة وعينين ناعستين. مُقدّمةُ أنفهِ مُدبّبةٌ متناسقةٌ مع وجنتيهِ اللتين تظهر عظامهُما حين لا يبتسم. إنِ ابتسمَ تجعّدَ الجلدُ حولَ عينيهِ في خطوطٍ قصيرةٍ مُتناظرة. شفتاهُ ثخينتانِ قليلاً. طويلُ القامةِ منتصبها في كُلّ الأوقات كما لو أنّه يُلقي خِطاباً أو يستعدّ لمناظرة. لم يُشبِهُهُ جَسَدُه أبداً. كُلُّ تِلْك الأَنَفَةِ لم تكن - رُبّما - فيه.

لم يعد بإمكانِ راوية أنْ تتذكّر جسده بحنينٍ إلى غائبٍ ما أو مسافرٍ أنيق سيعودُ بعطوره يوماً، بل يحضرُ مشهدُ قدمين تُسحبان، صدرٌ تكسّرتْ أضلاعه، ويدان مُقيّدتان بقوّة.

لم تحسبْ بعد كم أنفقتْ على هذا. لا تعرفُ منذ متى ووالدها مفقودٌ فحساباتُ جيهان مختلفة. هي تقولُ إنَّ اللحظةَ التي انطفأتْ فيها الكهرباءُ عن الحيّ وجابَ الأمنُ البيوتَ خالعاً أبوابها هي لحظة فقدانه. إذ إنهم لمْ يروهُ بعدها بل سمعوا فقط حفيفَ جسمهِ الهزيلِ وهو يُسحب خارجاً.

لكنّ راوية تقول إنّها لم تره أبداً. طوال حياته كانَ ظِلّاً مُختبئاً، وشبحاً مهووساً بالإصغاءِ الرهيف.

في العادةِ كانت أمّها تُشعل كلَّ ما في البيتِ من شموعٍ وشواحنَ قبل موعدِ انطفاء الكهرباء، كي لا يدخلَ ولداها التوأمان بنوبةِ هلعٍ كالعادة. لكنّ مواعيدَ الانطفاءِ في تلك الليلةِ كانت مفاجئة. لم يمتلكِ الولدانِ الوقتَ كي يبكيا أو يمشيا متعثرين بين أغراضِ البيت. حتى راوية لم تسنحْ لها فرصة السبابِ والشَّتمِ

يومها. اقتحمتْ أضواء كشّافات رجالِ الأمنِ العتمةَ ونادوا على أبيها كالمسعورين. ثمّ أخفوه بين أيديهم.

وجهُ أبيها لم يتصلْ بها يوماً ولم يُضِء على شاشة هاتفها. بعدما أخذوهُ صار أخواها يتناوبان في القفزِ على كنبته. ما عادتِ الجاراتُ تصففنَ فناجينَ القهوةِ على الصينية. وأصبحت راوية تُدخِن على مرأى الجميع.

كم أنفقتْ في البحثِ عنه؟ ذاتُ الخزانةِ الفيّاضة بالثياب؟

إنَّها ثيابٌ. نعم. تلمُسُها، تُعطِّرها، تفرِدُها، تطويها. ثيابٌ حيّةٌ يُحادِثُها المرءُ، يتغزلُ بها، يبدِّلها أو يستقبلها بترحابٍ في خزانته. تدفع راوية ثمنها راضيةً دونما إذلالٍ وتعدُّ الفكّات وتقدّمها للمُحاسب بكلّ سخاء.

أما الأبُ الذي رحلَ، فقد رحل. وعلى جيهان أن تعلمَ أنّ البيجامات لن تصلَ لأصحابها، وأنَّ المفقودينَ.. أبداً.. لا يطلبونَ بيجامات.

***

قاعةُ الطعامِ واسعة. الجميع قالوا إنّ السكن كان مُجمّعاً طالبياً قديماً ومن الغريبِ أنّ تماثيل رخاميةً ثُبّتت في زواياه. عُلّقَتْ ثريّا ضخمةٌ معطّلة في منتصف السقف. توَزَّعَت على الجُدرانِ أضواءٌ جانبيةٌ مكسورةُ اللمبات، لم يكن ارتفاعُها مُناسِباً وكثيراً ما ارتطمت رؤوسٌ بها. اتخذتْ أرضيةُ الموكيتِ، التي كانت في ما مضى فخمةً، شكلاً بائساً بعدما حتَّتها الأحذية وبقّعتها اللقمُ المتساقطةُ هُنَا وهناك. وبما أنّ نظامَ التهويةِ لم يكن يعملُ بشكلٍ جيد، فقد اختلطت روائح الوجبات على مرّ الأيام.

قيل إنّ هذه القاعةَ كانت مكاناً لمشاهدةِ التلفاز. مع هذا فإنّ توزيعَ المساحةِ كان مناسباً لإفطارٍ سياحيٍّ هادئ. لكنَّ أعدادَ القادمينَ ازدادتْ في الفترةِ الأخيرةِ حتى سبَّبَتِ الطاولاتُ القليلةُ المربّعةُ، العديد من المشاكل. كثيرونَ تضاربوا وتعاركوا بعد نقاشاتِ الفطور، وآخرون كانوا أكثر سلاماً وآثروا تناولَ وجباتهم واقفين.

أُحضرتْ بعدها طاولاتٌ كبيرةٌ تشبه تلك المخصصة للحدائق كي تحتلّها الأسرُ التي جاءت مجتمعةً، وبعضُ الكراسي البلاستيكية أيضاً. وصلتْ راويـة إلى القاعةِ المزدحمة. ضخَّم السقفُ العالي أصواتَ الملاعقِ المصطدمةِ بالصحونِ وتحيّات الصباحِ باللهجاتِ المختلفةِ والأمنياتِ السعيدةِ بالسنةِ الجديدة.

لمَ لم تتعرّفْ إلى أحدٍ هُنَا؟ ربّما كان تشابهُ المصائبِ هو السبب.

احتاجتْ للتعرّف إلى ذوي مصائبَ أُخرى أو بالأحرى أكثر بساطة. أول ما وصلتْ رحّبتْ بها بعضُ السيداتِ إلّا أنّ العلاقة لم تستمرّ بعد هذا. كانَ من المُتعبِ تتبُّعُ مشاكلِ الآخرينَ في الحصولِ على الإقامةِ والتأقلمِ وتعلمِ اللغةِ ولمِّ شملِ العائلةِ وكلّ تلكَ القصصِ المتشابكة. اكتفت بانحناءةٍ نحو إحدى اللواتي تعرفتْ إليهنَّ وهي جالسةٌ تأكلُ لتقول لها «صحة» مبتسمةً.

وجوهٌ متشابهةٌ كأنّها خُلقتْ من قطعةِ صلصالٍ واحدة. ذاك المارّ إلى جانبها يشبهُ جارهمْ في الحارةِ ذا البصقةِ كلّ خطوتين. وتلك التي أطعَمَتْ ابنها، لها كفّا الجارةِ العرجاءِ الكبيرينِ اللتين تستند بواسطتهما إلى جـدرانِ الزّقاق. أما ذاكَ الضاحكُ بصوتٍ عالٍ حتّى ظهرَ الطعامُ الممضوغُ في فمه، فيُشبهُ بائعَ القداحاتِ الذي كان يرابضُ في مدخلِ الحارة.

إنّ الحارةَ في بعض الأحيانِ تنزحُ بمن فيها لتُقيمَ في المُجمّع المنسيّ هذا.

أجـواءُ الطعامِ الجماعيّ جديدةٌ عليها. أثناءَ الرحلة تبادلتْ بعض البسكويتِ مع الذين رافقوها وناولها أحدهمْ ما لم يَـزِدْ على رشفةِ ماءٍ حين عطشت كثيراً. في بيتهم كانَ الطعامُ الجماعيُّ يعني أنْ تأتي إليهمْ جارَتُهم أمّ عماد لتقلي أقراصَ الكُبّةِ ثم تأكلُ معهم ما طبختهُ جيهان. بعدها تحملُ أقراصها وتُغادر. إلى الآنَ لا تعرفُ راوية لماذا جهّزَتْ جيهان المقلاةَ وحَمّتِ الزيتَ لتأتي تلك بإصبعٍ متشنجٍ من كثرةِ ما حفرتْ من الكبة وتقلي من دون أنْ تدعَ أحداً يتذوّق. كلّما رأت راويـة قالت لها: «روحـي شوفيلك شب حليوة أفندي، قميصه تفتا هندي»، ملوّحةً بقرصٍ ساخنٍ. كانت تلك المائدةُ شديدةَ الغرابةِ، إذ إنّهم تشاركوا صبَّ الطعام وشمّه ولم يتشاركوا تذوُّقَهُ..

بعدها ما أكلت راويـة اللحم وصـارتْ تشمئزُّ من أقـراصِ أمّ عماد.

تذَكّرتْ مشهدَ اجتماعهمْ على السُّفرةِ كما تلوحُ في النفسِ ذِكْرَى جنازة. موسيقى غريبة كـ Lacrimosa طَغَت على كلّ الأصوات. فُتِحَتْ أفواهٌ وأُغلِقَتْ بالتصويرِ البطيء. شرِبَ الأبُ النحيلُ المَرَقَةَ ببطء. تسَلّى الولدانِ بعمل أشكالٍ في الأرزّ. عرَضتِ الأمُّ على الجارة قطعَ مُخلّل وزيتونٍ أخضر. صبّت راوية لها في صحنها، احتفاءً بها، فيما أمّ عماد المُخبرة.. تبلعُ وتلوك.

***

منحوتاتٌ دقيقةُ الحوافُ حُفرت أفواهُها وخطوطُ التجاعيد في جبينها بإتقان. توزُّعها كان عشوائياً من دون أنْ تتقابلَ وجوهُها. جميعهمْ ذُهاة تقريباً ما عدا تمثالٌ لرأسٍ مع قاعدةٍ كرِهَهُ كلّ قاطني السكن

وتشاءموا منه. في المكانِ الذي اصطفَّ فيه النَّاس من أجلِ الفطور، يوجد تمثالٌ لرجلٍ هرمٍ منحنٍ قليلاً.

– تمثالٌ ثقيلٌ لهذا أبقوه هُنَا ولم يتكلّفوا عناء نقله، قال أحد الذين وقفوا خلف راوية.

– الأسبوعُ الماضي كاد الأولادُ أنْ يكسروا أنفهُ. ضحك الآخر.

– لا طعمَ لهذا. إنّه كئيبٌ ولا ينقصنا. قال الأوّل.

– مرّةً غطّاهُ الناسُ بشرشفٍ. قالوا مزلّط. أجاب الآخر ساخِراً.

– نظرةُ الهرم حادّةٌ مؤنِّبةٌ ودقيقة التوجّه. يكادُ يُمسكُ صحناً في يده، قالت راوية.

فجأةً رأت عرفان في الطرف الآخر من الصالة. ما إنْ رآها حتى هرولَ نحوها. وقفَ إلى جانبها وحيَّاها.

– أتسمحين لي؟ قال ثمّ وضعَ قطعةَ خبزٍ مقرمدٍ في صحنها وشريحةَ جُبنٍ صفراءَ بدت أنّها ستتعفن بعد ساعاتٍ ووضع في صحنه مثلها.

مشت قليلاً وقلَّبَتْ بالمِلقط المعدنيِّ الخيارَ المُقطَّعَ والبندورةَ الرخوةَ فلم تعجبها. تناولتْ تُفّاحةً وصبَّت فنجانَ قهوةٍ بالحليب. اختارتْ طاولةً صغيرةً وجلست عليها. تبعها عرفان المُشرئبّ وجلس قُبالتها.

– لا تسألني إنْ حصلَ معي شيءٌ جديد، أرجوك. لا جديد.

– لا، لا. أحببتُ أنْ أُصبّحَ عليكِ لا أكثر.

– صباحٌ رائقٌ ثلجيّ، قالت له مُبتسمة.

– صحيح؟ نظر عرفان إلى النافذة فإذا بالثلجِ يتمايلُ كما لو كان مقبلاً نحوهما.

تحدّثا معاً فيما خدشتْ أطرافُ الخبزِ اليابسةِ باطنَ فمويهما.

– لم أركِ منذ يومين هُنا. سألها.

– هل تعرفُ لي مكاناً آخر؟ قالت راوية مبتسمة ثم ارتشفتِ القهوة.

– أحياناً أشعرُ بأنّ الغُرف التي يُغلق بابُها دوماً لا تنتمي إلى السكنِ حقيقةً، قال عِرفان مُبرِّراً.

– يحدثُ أنْ يبحثَ عنّي أحدهم هُنَا. هذا جميل.

يستهويها الشعرُ المُجعَّد. أما شعرُ عرفان فناعمٌ جداً وملتصقٌ برأسه. تعشقُ العيونَ الزرقاء. تنازلت بعد فترةٍ وفكَّرت بأنّها قد تحبُّ عيوناً عسليةً تصبح أفتح مع الضوء إلّا أنّ عينَي عرفان كانتا صغيرتين مدورتينِ وشديدتي السواد. أحبَّت أنْ يكون رَجُلُها طويلاً عريضَ الصدرِ كي تدُقَّ عليه بيديها حين تبكي. لكنَّ صدرَ عرفان ضيّقٌ نحيلٌ بزَغَتْ أشعارُهُ من قَبَّةِ الكنزة.

لعِرفان شعرُ رأسٍ مُتمَدِّنٍ مُنسَّق وعينا غجريّ متنقل. جبينُ بحّارٍ عتيدٍ ويدا حمّالٍ مُتعب. صوتُه رنينٌ جميلُ الوقع وحديثه بطيءٌ بارد. ولكي تُخْفِي راوية حيرَتَها أمامَ هذا الكائنِ ابتلعت الجبنَ العفنَ بلا تردد.

– نُقَطِّعُ الوقتَ كأنّهُ خبز.

– لكنّه قاسٍ، قال عِرفان مبتسماً.

– أفضلُ من أنْ يكونَ مُفتَّتاً، أجابت راوية.

أقبل بعض الشبابِ ليسلّموا على عِرفان. دفعتِ الريحُ بذرّاتِ الثلجِ نحو النافذةِ المستطيلةِ حيث جلستْ راوية. بدتِ الغابةُ القريبةُ كأنّها تستضيفُ حفلةَ أكلٍ جماعيٍّ أيضاً. قرقعاتٌ وأغصان تتكسّر. تجمّدٌ لا حرارةَ تُفكِّكُه. هجماتُ الثلجِ الناعمِ شديدةُ الرّقة، مُلامستها لنافذتها تشبه طبطبةً على جرحٍ يؤلم.

كيف تُدفىء جيهان نفسها في هذا الشتاء؟ بالرّكضِ بين مكاتب السماسرة ربّما

تحدّث عِرفان إلى الشبان. أحدهم لديه شاربٌ طويلٌ. لَمَحَت راويـة الآخـرَ بطرفِ عينها وهـو يربّتُ على لحيتهِ الطويلة. انتهى عهدُ التعبِ يا راويـة. ليكن كُلّ هؤلاءِ الشّبّانِ بقاماتِهم الممشوقةِ وأجسادِهم اليافعةِ التي نجتْ إلى الآن، ملاذَكِ.

عاد عِرفان وجلس أمامها.

- كنزتكِ جميلة، قال ونظر في عينيها.

- لأنّك شبعان، أصبحتَ ترى كُلَّ شَيْءٍ جميلاً.

ضحكا معاً بصوتٍ مسموع.

عيناهُ حالِمتانِ رغم أنّه قليلُ الكلام. أفقُ العينينِ كافٍ ليوقعَ المرءَ بالحب. لا بُدَّ أنَّ جيهان تُحبّه كي تبحثَ عنه بهذا الشغف. نعم. إنّها تعشقُ والدكِ يا راوية. عليكِ أنْ تُصدّقي هذا.

الفصل الثاني

يعنُّ على البال..

في بيتٍ استأجرهُ قتيبة فقط لأجلها تفرّغَتْ مواهب شهيناز كأغصانٍ نمت دونما تشذيب. أفلَتَتْ تعطُّرَها كأقحوانة. جعلتْ تحوشُ وتُقبّلُ وتتضرّعُ لقضيب. في مدخلِ البناء كان رجالهُ يفتشونها ويأخذونَ منها حقيبتها بعد أنْ يردّوا إليها ملابسَ النومِ الحريريّةَ التي كانت فيها. يمرّرونَ جهازَ كشفٍ إلكترونيّ على جسمها. يطلقونَ سراحها إليه لتصعد الأدراجَ نحو الشُّقَّة عاريةً من كلّ الأحمالِ الثقيلة. لو أنّ الجهاز يكشفُ الفِتنةَ كالمعادنِ لطنَّ أمام جسمها لساعاتٍ طِوال.

تتذكّر لقاءها الأوّلَ به كما لو كانَ لحظةَ ولادة. بدايةً لمواسمِ الرَّعَشاتِ المُختلفة. نافستْ رفيقاتِها طويلاً حتّى حصلتْ على هذا المنصب. مرّةً عضّت إحداهُنّ من كتفِها وبدأتا العِراكَ وشدّ الشعرِ وشتمَ بعضهنّ بكلّ الألقابِ، فقط لأنّ تلك لمّحَتْ إلى أنّ سرقةَ الضابطِ من شهيناز قد تكونُ من أسهلِ المهمات. أطالتْ وقتَ العِراك ما أمكنها كي تتجمّعَ بقيةُ البناتِ وتتفرّجنَ على مصيرِ التي يخطر في بالها أنْ تعترض الطريقَ بينها وبين قتيبة. عافتها بعدئذٍ على أرضٍ

مراحيض المقصف تنعقُ من شدّة الألم. شعرت بأنّه كان بإمكانها خنقُها، مصُّ دمها والتنكيلُ بجسمها الذي يُمكن أنْ تفكرَ بعرضه على قتيبة.

ووعدتْ نفسها بأنّه سيكونُ لها كأعضائِها، كبصرها، يغطّيها كجلدها، يكوّنُها، يسندها كعظامِها، وهي ستفعلُ أيَّ شَيْءٍ لتحتفظ به.

في تلك الفترةِ تسابقتِ الفتياتُ في قدرتهنَّ على تخليصِ الضبّاطِ من أعبائهمِ المُتكاثرة، إذ إنّ مسؤولياتهم قد ازدادت. حتى التجارُ الذين صادقوا ضُبّاطاً كانوا أكثرَ حظوةٍ في الحصول على صاحباتٍ مميزات من أولئك الذين لم تربطهمْ بالضُّباطِ علاقاتٌ قوية. وكان لكلِّ وَاحِدَةٍ منهنّ مصدرُ معلوماتٍ خاصٍ بها لا تبوح به لأحد. سرّ مهنتها وأهمُّ من العطورِ وقطعِ الثيابِ الضيقةِ والثيابِ الداخليةِ المُثيرةِ. معرفةُ تفاصيلِ الزبائنِ تجعلُ العملَ دقيقاً ومُتقناً وغيرَ محصورٍ بمضاجعةٍ وإنّما يشمل حياةً كاملة.

مصدرُ شهيناز الوحيد كان فهد. عرفتْ منه اسم قتيبة والفرعَ الذي ناوبَ فيه وكان ذلك كافياً. قرَّرت بعدها أنْ تتعرف إليه أكثر، ولكن بنفسها.

ترصَّدَتِ شهيناز كُلَّ يومٍ، الساعاتِ، كي تلقاه. وكلمَّا كان الشتاءُ أعتى وأشدَّ برداً، دوتْ رعودٌ مخيفةٌ في مكانٍ ما من السماءِ ركضت إلى الشبَاك. أنصتتْ إلى غضب الفصول وتناحُرِها ممسكةً هاتفها بيدها، منتظرةً اتصالاً منه. وإنْ تحدَّثَ الناس عن حملةِ اعتقالاتٍ تجردُ حيّاً ما أو عن مداهماتٍ ليليةٍ للبيوتِ والحارات، ألغتْ مواعيدها مع الآخرين ووقفت أمام خزانتها لتختارَ فستاناً مناسباً لليلة.

وإنْ قرأتْ في عيونِ الناسِ أثناءَ تجوالها في الشوارعِ عناداً وبؤساً، عرفتْ أنّهم قد أتعبوه. وأنّ صداعاً قد انتابهُ من كثرة الأسماءِ

التي مرّت عليه. وأنْ عليها أنْ تشتري عطراً ثقيلاً جديداً يشبه بخوراً لا ينطفئ. ظلاً جديداً للعيونِ بلونِ جبلٍ أجرد. وأحمرَ شفاهٍ يجعل الشفاه أكثر لزوجةً ورطوبة حتّى تطيّرها الإثارةُ وتُطيحَ بها في أرضِ الشَّفة.

«لم يَحُطَّ الدمُ على هذه الثيابِ حتّى يُغسل».

كان عليها أنْ تتآلف مع بذلاتِه «المُرصّعة بالدم»، كما كان يسمّيها. أتى بذقنٍ نابتةٍ وشاربين كثّين. ببذلتهِ العسكريةِ وقد تخمّر عليها الدمُ واندسّ في جيوب الصدر المُربّعة. جلسَ على الكنبةِ مغمضاً عينيهِ لثانيتينِ أو ثلاثة أو ثلاث وكأنّما يُهدىء من روعِ تلك الدماء. خلَعَتْها شهيناز عنه بهدوءٍ وهي مستندةٌ إلى ركبتيها. أمسكتْ جاكيتَ البدلة. تفرّسَت فيها. طوَتْها على مهلٍ. وضعَتْها على يدِ الكنبة.

أصابعُ قتيبة القصيرةُ استَحَقَّتْ أنْ تُكنّى. كلُّ واحدٍ تفرّدَ بعلامة. إما ظفرٌ مكسورٌ أو ندبةٌ. شعيراتٌ ناقصةٌ قليلاً أو علّاقةٌ مائلةٌ مع الكف. لكلٍّ قبلته، تَوضَعُ شفاه شهيناز عليه، مسقطةُ الخاص على لِسانها، ملمسةُ في جوفِ فمها. لكلٍّ طعمٌ ارتعشتْ معه هُدبُ شهيناز الذوّاقة.

الكلامُ يتبعُ المضاجعةَ ولا يكون قبله. ابتداءُ العُريّ يجب أنْ يكون لُهاثاً وليس كلاماً يُشتّتُ الذهن. هذا ما كان يقوله قتيبة وصبرت عليه شهيناز كثيراً بانتظار أنْ يُحادثها. تعنّ على بالها إلى الآن الأحاديث التي خصّها بها وحدها.

لأنّه ربما لم يجدْ علامةً في جسدها الطازج، في حركاتِها المُحترفةِ وهمساتِها التي لَدَغَتْ سَمْعَهُ، على حزنٍ كان يتوقّع أنّ القحباتِ يخفينه لأنّهنّ يتألمن لإجبارهنّ على هذا ويبكينَ حظهنّ العاثرَ مع كُلّ مضاجعة. لطالما اعتقد أنّهنّ يفتحنَ بابَ غرفةِ النومِ

متململاتٍ ولا يصدقن متى تنتهي دقائقُ الجنسِ الكابوسيةِ تلك حتى يعدنَ إلى حزنهنّ. وكلّما قبضنَ على النقودِ أو صرفنها من أجل مهنتهنّ كرِهْنَها وشَتَمنَهَا وصرخنَ في المرايا على أنفسهنّ وهنّ ينكشنَ شعورهنّ. لكنّ شهيناز لم تكن هكذا، بل إنّ الفرحَ كان يقطرُ من أعضائها. استطاع قتيبة القبضَ على لذّتها مع كُلّ حركةٍ من يده.

أحبَّ الضابط الذي تعبَ من الاستجوابِ، استجابات جسدِ شهيناز. الأُلفةُ بين قضيبه وفَرْجِها كانت مُحيّرةً، وكأنّهما خُلقا ليلتحما معاً.

أكثر الأشياءِ التي حكى عنها قتيبة هي بيتُ طفولتِهِ وأولادُه. بعد المُضاجعة كان كمنْ ألقى بكلّ الأعباءِ ويودُّ الحديثَ عن أكثر الأشياءِ التي تفرحه وتسرّهُ.

جلبَ رجالهُ حيناً إليهما بعضَ الطعام والمشروبِ. فحادَثَ شهيناز وهو يأكلُ، وهي تُصغي. صبّتْ لَهُ الزهوراتِ التي يحبّها، حيناً آخر. غبَّ من بخارها نفساً عميقاً. قال إنّها عشبتهُ السحريةُ حتّى أنّه – أثناء احتدامِ السهراتِ في المقصف – وحين يُمسك بحبلِ الدبكةِ من بدايته يخبّط على الأرض بعشوائيةٍ من شدّة السُّكر و«ينخّ» في غير موعده، لا يتحرَّجُ بعدها من أنْ يطلبَ كأسَ زهوراتٍ كي يعيدَ ضبطَ الإيقاعِ في أطرافه. أريدها طازجةً وليستْ تلكَ المحفوظةَ في أظرفٍ، أفهمت؟ يقول للنادل فيهرعُ ذاك مُسرعاً لتلبية الطلب.

«أتيتُ من جبالٍ تعيشُ في ساكنيها»..

مذ ولدَ قتيبة وهو محاطٌ بالوحوشِ المُحنَّطة. قالت أمه إنّها شعرتْ بآلامِ المخاضِ وهي في الصالةِ تمسحُ الغبارَ عن الحيواناتِ ذاتِ العيونِ الثابتةِ والبطونِ المُخاطةِ. تمَدّدَتْ على الكنبةِ الكبيرةِ حيثُ ثُبّت فوقها نسرٌ عظيمُ الجناحين. كان صراخها مدوياً هادراً حتى لكأنّ قوائمَ الحيواناتِ المثبّتةِ على المنصّاتِ الخشبيةِ ارتجفتْ

وهَزّت. هرولتِ القابلةُ إليها ومدّت يديها إلى رحمها المحتقنِ الساخنِ واجتثّتْ طفلاً ذا صراخٍ أشدُّ عنفاً بعد. حملته بين يديها فيما سالتْ دماء الولادةِ وملأتِ الأرضية. سرتْ نحو البابِ حيث كان أبوه منتظراً. هطل الثلج في ذلك اليوم بغزارةٍ. حملهُ والِدُه بين ذراعيه فيما ذابت ذرّاتُ الثلج ببطءٍ على الفرو الذي كان يرتديه.

أوّل ما حبا قتيبة عرف طريقَ غرفة الضيوفِ واستندَ إلى الكنباتِ حتى يقف ومدَّ يديه محاولاً لمسَ فروِ الضباعِ المنقّط وظهورها الحدباء. حينَ كبر أكثر صارَ يقفُ قبالةَ النسر الذي على أُهبَةِ الطيرانِ ويفرد يديه أمامهُ ملوّحاً بها. وكلما شعر بغضبٍ أو عاقبته أمُّه على ذنب ارتكبه، كان يتوجّه إلى الصالة ويقف قبالةَ الضبع ماداً أصابعهُ كأنّ بها مخالب، ويقلّد صوتَ زئيرٍ مخيف وهو ينظر في عينيهِ تماماً.

أمه خليلةُ الحيواناتِ المُثبّتة على الرفوف ورفيقةُ الجوارحِ العنيدةِ المتعاليةِ على الغرف والصالات. هي التي فرّغَت أحشاءَ الحيواناتِ ودَهَنَتْ جلدها بموادِ التحنيطِ وسلخَتِ العضلاتِ بدقة. شديدةُ البأس. أقسى من أبيهِ الذي صادَ الضباعَ في أوكارها. تعلّم مِنْهَا أنْ يكون كتوماً شديد الإنصاتِ قليل الكلام. مرةً أمسكتْ به وغرزت أظافرها في رقبته. كان ذلك قبل المغيب بقليلٍ بعدما زارتها بعض النسوةِ مصطحباتٍ أولادهنَّ معهنّ. جلسن في الصالة متدثراتٍ بشالاتٍ على أكتافهنّ بألوان عديدة لا تُحصى وأمّه بينهنّ بوجهها المتجهّم وعينيها الحادتين. راقبتْ هذه ورَمَقَتْ تلك وناولتِ الأُخرى التي عطستْ كومةً من المحارم.

سمعته أمّهُ يشرحُ لبقيّة الأولاد كيف يُراقبُ أبوهُ مسيرَ الضباعِ وكيف يُباغِتها في أوكارها.

حين رحل الضيوف انهالتْ عليه. ضربَتْ كل جزءٍ من جسمه فوقعت عليه علبة المحارمِ وفنجانُ قهوة. احتمى بالطاولةِ وحاول أنْ يندسَّ تحتها لكنها سحبته من كعبِ رجلهِ وأتمَّت ضربه. شَدَّتْ لسانَهُ بيديها وشتمَتهُ.

«تُخبر الأولادَ عن سرّ عمل أبيكَ أيها الغبيّ؟».

ظلَّ فمه يؤلمهُ أياماً وشفتاه شديدتي الازرقاق. عرف قتيبة وقتها أنَّ الفمَ يجبُ أنْ يُخاطَ كبطونِ الضباع تماماً. وأنّ أسرارَ الجبال لا تُنقل لأحد. مسيرُ المُطارِدين سرٌّ لا يُباح به. ولم يعد يخبرُ الأولادَ شيئاً رغم إلحاحهم ومراقبتهم إياه خلف النوافذ.

– هذا مخيفٌ حقاً.

– نعم، لديّ أمٌّ مُهابة.

– وأنا؟

– أنتِ الغزالة التي سأصيدُها وأُحنِّطها.

***

«نوافيرُ ماءٍ قافزة».. هكذا وصفَ قتيبة أولاده الثلاثة لشهيناز.

يتحلَّقونَ حوله حين يصل إلى البيت يتمسّكون بساقيهِ القصيرتين ويديهِ. يتضاحكون حين يفتعل بوجهه حركاتٍ مخيفة. أول ما تعرَّفت إليه شهيناز كانت زوجتهُ نجلاء حاملاً في شهرِها السادس. قال قتيبة إنّ لثتها متورمةٌ من الحملِ وأنفَها متضخمٌ. شعرُها خفيفٌ لكثرةِ ما تساقطَ وصدرُها نافرٌ لا يهتزُّ من شدّة احتقانه. وإنّها أصبحتْ تقفُ مُباعِدةً بين ساقيها كي تتمكن من التوازن.

وفوق كُلِ هذا أصبحتْ تشمّه كما لو أنّها تستنشقُ سخونةَ دمه. تحومُ حوله تُقرّب أنفها من رقبتهِ وعنقه وصدره وتشمُّ شعرَ

جسدهِ وثنايا أصابعهِ وتدسُّ أنفها الضخمَ ذي الزؤان في أكمامِ قميصهِ وسرجِ بنطالهِ ثم تلومهُ بغنجٍ على رائحةِ العرقِ وكأنّها تستهويها.

كانت أمّه تقول: «والله نجلاء لا تشبه إلّا هذا وتشير بيدها إلى الجبل الطويل الأقرع قبالة منزلهم. أعشابٌ يابسة وترابٌ جافٌ وأوكارٌ للثعابين والزواحف. هذا كلُّ ما يحويه. لا وفوق كلّ هذا تهبُّ منه زوابعُ غبارٍ قوية تنغّصُ علينا الصيف كلّه. ومع هذا فإنّه عالٍ جداً. لا ويفصل قريتين عن بعضهما. حتى الطريق الذي شُقَّ على محيطهِ وعرٌ خطير. من ذا الذي يقدر على نجلاء؟ ستظل رابضةً على صدري كهذا الجبل».

وصف قتيبة لها صوت امرأته العالي الذي لو سمعته السلطات لأزالته من منصبه ووضعتها مكانه. صوتُ نجلاء تهتزُّ له الجدران وينضبط به الحي بأكمله. كانت ابنة الشيخ الفاضل الأشهر في القرية هذه تقف في صباها بكل جرأةٍ في الحيّ وتوبخ الأولاد أثناء لعبهم بالحصى والتراب أو قطفهم الفاكهة اليانعة. ولشدة علوّ صوتها كان الأولاد في الحيّ المجاور يظنون الصراخ موجهاً إليهم فيتفرقون ممتعضين. قال الناس إنّ الشيخ الفاضل ارتكبَ خطيئةً واحدةً في حياته وهي إنجابه، بين خمسة ذكور، هذه الفتاة التي لا يصلح لها كعريسٍ إلّا ضابطٌ في الأمن كقتيبة.

حتى في عرسها وبّخت إحدى قريباتها أمام الزوار وصاحت بالمطرب طالبةً منه أنْ يغنّي أغنيتها المفضلة. ورغم صوتِ الأغاني المُضخَّم بمكبرات الصوت استطاع المدعوون سماعها وهي تؤنب قتيبة على دعوته بعض الأشخاص. وحين وجد أنّه من المستحيل عليه أنْ يؤدّبَ حبالها الصوتية بعد الآن أو يشذّب حنجرتها الثخينة، لم يعد يتواجد معها في مكانٍ عامٍ أو مع الناس إلّا نادراً، وشجّعها على إنجاب الأولاد لتصرخ بهم حتى يبحّ صوتها وتملّ.

ولأنّ شهيناز كانت تتصرّف في المقاصف كأُنثى دلِعة، تغمز وتقهقه وترقص تحت الأضواء، وتدقّ كؤوس المشروب مع الآخرين برقيٍّ لم يعهدهُ قبلاً، فقد قرر الوصول إليها. وهذا ما حدث.

درَّبها كما تُدرّب الحيواناتُ في السيرك. شيئاً فشيئاً أصبحت تعلمُ متى يتوجّب عليها أنْ تقفز فوقه ومتى عليها أنْ تتلوى بهدوء. وتستشِفُّ من نظرة عينيه وضعية الليلة ومزاجه الملائم لها.. تمَدَّدَتْ على الكنبة مسترخيةً كأنّها جزءٌ منها ووهبتْهُ نفسها. تفاعَلَتْ في موجاتٍ من الشبق المُزبد وغسلَتْ عنه حبرَ الليل وأسماءه. متى طلبها وجدها صاحيةً حاضرة. كأنَّ رغبتها فيه لا تنام.

لم تعترف شهيناز بحياتِه خارج الشُّقَّة، أو خارج باب المقصف. كلّ التفاصيل الأخرى: وجودُ امرأته الحبلى، مكتبه في الفرع المخيف، بحّة صوته، تعبُ ساعديه، نظرته الرزينة.. لا تهمُّ حقاً. هو يأتي إليها كي يكون شخصاً آخر ويُطلق هدوءه المسجون في صدره. لهفتهُ التي خبّأها. ومن البديهيّ أنْ يكون لقتيبة ذي البأسِ وجهٌ ودودٌ آخر يصبّره على تحمّل الغِلظة والقسوةِ. ذاك كان الوجه الذي تُقبّله شهيناز.

استحقّ قتيبة استراحةً. لطالما تأوّه حين دلّكَتْ شهيناز ظهره بالزيوت. كأنّها حملتْ عنه المتاعب وزيَّنت مفاصلهُ كي يحملها بهمّةٍ من جديد. عمِلَ في الفِرع بكلّ أعضاء جسمه: يديه، أصابعه، لعابِهِ حين بصق، قدميه حين ركل. لهذا أكثرتْ شهيناز من الزيت ودَعَكَتْ كل انحناء في جسده.

أشعلتْ في المساءات الماضيةِ ضوءَ اللدِّ ووجَّهَتهُ نحو الحائط، إذ لطالما سُرّت بقدوم قتيبة في وقت انقطاعِ الكهرباء. حين يُصبح جسداهما ظلّين يتقاربانِ شيئاً فشيئاً حتى الالتحام. تَشعر مع النور

الشحيح ذاك بأنّها امرأةٌ غامضة، وأنّ قتيبة يستجوبها. يحاورُ جسدها بأسئلةٍ لا تنتهي. ويضرب صمتَ حلمتيها لتزورَ وتتكلّم.

الأريكة ترابٌ، المخدّاتُ حصى. كان يضاجع عضوها المشاع وكأنّه له وحده. يعامل آثار الآخرين على جسدها وندوبَ الليلاتِ الفاحشةِ وكأنّها منها. مزروعةٌ تحت جلدها. يقبّل الكدماتِ الزرقاءَ المدوّرةَ في رقبتها ويلعق فرجها المتوسعَ بمزاجٍ عالٍ. وبعد أنْ ينتهي يمرّغ يده على فمه ويمسحَهُ بقوّة.

كأنّه فوق تلك الكنبة، وعلى ضوء اللد المتناقص، كان يفترسها..

***

حين استيقظت شهيناز مساءً وجدت رسالةً من فهد على تلفونها، يُخبرها فيها بأنّه سينتظرها بعد ساعةٍ أمام باب السكن مُتمنيّاً منها أنْ تشرب المزيد من القهوة كي «تُصحصح» من سكرها المُشين البارحة. ردّت عليه بأنّها لن تتأخر. نهضت لتُعدَّ القهوة فوراً، إذ إنّ رأسها المُخدّر قد أرغمها على أنْ تحلم بقتيبة طوال الليل. لقد خافت أنْ تبقى عالقةً في الحلم.

خرجت ونظرت حولها. بدا لها أنَّ الخُضرة قد ولّتْ إلى الأبد.

مظهرُ المبنى من الخارجِ ضخمٌ وكأنّه انبثق من الأرْضِ كغول. نمتْ فوق جداره وأساساتِه الحجريةِ بعضُ النباتاتِ المُتسلّقةِ حتى وصلتْ إلى شبابيكِ الطابقِ الثالثِ آخذةً مساراتٍ متعرّجةً. كأنّها خطوطُ كفٍّ التَقَتْ ثُمَّ تباعَدَتْ. دُهِنَ الجزءُ الشرقيّ من المبنى بلونٍ أصفرَ يبدو كمّونياً أثناءَ الغروب وفاقِعاً كزهرِ عُبّاد الشمسِ في الصباح. كأنّهُ يتفاعلَ مع حِدّة الأضواء السماوية.

مدخلُ السكن كان باباً دوّاراً ضخماً يدخلُ منه الناس تِباعاً. عطّلَهُ المسؤولون وتَرَكُوا بابَ الاحتياطِ الصغيرِ قابلاً للفتحِ والإغلاق

لكلّ من يودّ الخروج أو الدخول. أمام المبنى مُباشرةً حديقةٌ صغيرةٌ بحشائشَ يابسة. اتفقَ بعض المتطوّعين وأحضروا، منذ فترةٍ، أرجوحتين. صمّموا فسحةً مُربّعةً ملأوها بالرمل كي يلعب فيها الأولاد، وبنوا بيتاً خشبياً عالياً له سلالِم حوله أو شبكاتٌ مصنوعةٌ من حِبالٍ عريضةٍ مشدودة كي يتسلّقها الأطفال في تجربةٍ مرحةٍ للظفرِ بعلوٍّ مُفترض.

وكثيراً ما رأت شهيناز الكبارَ ها هُنَا أيضاً. تزحلقوا. مرّغوا أصابعهم بالرملِ واحتلّوا مساحةَ اللعب. بدوا مُضحكينِ بقهقهاتِهم المخبولةِ وهم على وشكِ بلوغِ قمّة البيت الخشبي.

ستغربُ الشمس بعد قليل. تصاعدَ الثلجُ تدريجاً من الأرضِ حتى جذوعِ الشجر. أصبح للأغصانِ منظرُ الأعواد الدقيقةِ حتى أنّه من الصعبِ تصديقُ أنّها قد تعودُ وتخضرُّ مرّةً أخرى.

هذا الثلجُ نهبَ من الأغصانِ كُتلتها. غيّر ملامحها. نقلَها من شبابٍ مُخضرٍ إلى كهولةٍ بيضاءَ مُقَدَّدة.

أسِفَتْ شهيناز. لقد أصبحتْ مُستبعدةً من كُلّ شيءٍ بعدما كانت متوّجةً على عرشِ الأسرّة الناعمة وكنباتِ الشبق والوضعيّات المجنونة. بعدما كافحتْ بكُلّها وتحمّلتْ روائحَ الرجالِ المحرومينَ ومناظرَ الكروشِ المُشعّرةِ فوق جسدها الناعمْ. أوساخَ السهّيرة وألسنتهمُ القذرةَ بعد العشاءِ الدسم. وكثيراً ما أُصيبت بحساسيّة وفيروساتٍ وخرّاجاتٍ مؤلمة.

أصبح عليها الآن أنْ تُدفىء نفسها من جديد وتبحث منذ البداية كمبتدئةٍ بعدما كانت هي من يُجرى البحثُ عنها. لقد سخرتْ منها الأقدارُ أكثر مما يجب. اعتيادُ الأماكنِ ليس سهلاً أيضاً. على شهيناز الآن أنْ تعتاد هذه المساحاتِ الشاسعة من الشتاء. غاباتٌ كاملة امتدّتْ أ...

سقى الله أيّاماً ما دخلت فيها شهيناز إلى الصالةِ الكبيرة ذات الأضواء المُتراقصة إلّا حين امتلأتِ الطاولاتُ عن بكرة أبيها.. بالزبائن.

رآها فهد وسمعَ طقطقة كعبها ولمحَ تلويحةَ شالها فمشى نحوها وقال لها مُباغِتاً:

– ما وضعُ تلك البنت؟ وضحك غامزاً.

– كنتُ أظنُّ أنّ سماجتك وقتيّة.

– بالله عليكِ دعينا نتسلّ.

– إنّها ما زالت عديمة الخبرة.. وبنت. استرحت؟

– بالعكس، هذا أفضل، قال ضاحكاً وتبعها.

– سألتُ أصدقائي من أجلك. قال متحمساً. رمقها بعض الرجالِ المتسكعين من حولها بنظراتٍ مُريبة. تمشّيا نحو طريقِ الغابة.

– عن ماذا؟، سألَتْهُ.

– من أجل العمل. قال وضحِكَ بأعلى صوته. صمتت شهيناز قليلاً ثم قالت:

– أليس لديهم مقاصف؟

– يا حبيبي عليكِ، قال فهد وهزّ كتفيه كأنّه يرقص. ليتَ كل النساء وفيات لمهنتهنّ مثلك. على مهلك الأرضُ متجمّدة ها.

– أتمنى أنْ تقع وتُفجّ، قالت وأكملتْ المسير.

– مقبولةٌ منك يا ستّ الحسن.

توقفت شهيناز واستدارت نحوه.

– أجبني. أليست لديهم مقاصف؟

– إي أكيد لكن كيف ستنامين مع الأوروبي قولي لي، بـ«الوما»؟ بالإشارة؟ عليكِ أنْ تتعلمي الكلام أوّلاً. اللغة يا عزيزتي،

بذاءةُ اللغة. ثم هل تظنين فتيات أوروبا كفتيات المقصف اللواتي كنتِ تعضيهنّ هكذا؟ وضرب فكيه ببعضهما وكأنّه يعضّ.

– ماذا سأشتغل إذاً؟

– احتمالات عدّة. طبّاخة. وحرّك يده حركةً دائريةً كما لو كان يحركُ حساءً في طنجرة. منزّهةُ كلاب. عاملةُ حديقة. بائعةُ فلافل متجوّلة. وقلّد طريقة صُنعِ الأقراصِ وقليِها. موظفة في محلات الثياب ترتبينها. تكنسينَ الشعر من على أرضياتِ صالوناتِ الحلاقة. قلّد حركةَ مِكنَسَة. وهناك المزيد.

«بحياة الله»؟ ولماذا لا أقول الحقيقة؟ إنّ لديّ خبرةً في استعراضات العريّ؟ تقبيلِ البنات والنومِ مع ثلاثةٍ بآنٍ وبعضِ الفنون الأُخرى؟ يطردونني؟ لا يعطون إقاماتٍ للخبيراتِ مثلي؟ ها؟ أم أنّهم مكتفون؟ شدّت الشال حول رقبتها أكثر.

يا لهذه السفريّة البغيضة. «تريدني أنْ أكنسَ الشعرَ يا فهد السمج؟»، قالت شهيناز غاضبةً وهي تلوّح يديها في الهواء.

وضعَ يده على كتفها ثم قال:

– يا عيوني يا نوريتي الحلوة.. انظري كمّ الشبابِ المساكينِ هُنَا. يا حرام. الأوروبياتُ لا يفهمن علينا نحن العرب يا عيوني. وأشار إلى قضيبه.

– هل أنت جاد؟ شهيناز عشيقةُ قتيبة أكبرُ ضابطِ مخابرات في البلد وأغنى من تجارِ العاصمةِ وصاحبُ سُلطةٍ في فروعِ العاصِمة، تنام مع الجرابيع؟ العاديين؟ المساكين؟ لم تحزر يا فهد. وأبعدتْ يده عن كتفها.

– هاها. ضحكَ ساخراً. لم تعودي العشيقةَ بعد الآن، أم نسيتِ؟ وحرّك أصابعه في الهواء علامةَ طردٍ وإقصاء.

– وماذا يعني هذا ها؟ بعد كلّ شيء هو الذي سفّرني إلى هُنَا ودفعَ لي. انظرْ في عينيّ يا فهد السمج. سيتصل قتيبة بي. أتشارط؟

– لك شهيناز، بدأتُ أقلق عليكِ ها. كيف سأعود إلى مدينتي الآن وأنا لستُ مطمئناً على عقلك؟ عيوني طردكِ كذبابة بعد أنْ مسح الأرضَ بكِ وتتمنين أنْ يتّصل؟ تتوقّعين؟ يا ويلي.

صمتت شهيناز.

«لا شوكولا بالويسكي اليوم لفهد الجوعان؟ الميتِ من الجوع؟»، قال وتصنّع أنّه سيقع أرضاً من خواءِ معدته فسُمِعَ صوتُ اصطكاك الثلجِ تحت قدميه.

ماذا تفعلُ الآن بأنوثتها المقتولة؟

أحياناً يصادفُ المرءُ أشخاصاً يسلبونهُ ما كانَ يجيده. يطمرونَ كلّ ملكاتِه، ويحوّلونهُ إلى أبله مخبول. لقد تعلمت شهيناز فترةً قيادةَ السيّارة. لم تُكملْ ولكن تعلّمت. عرضَ عليها أحدُ التجار مرّةً أنْ تعملَ موظفةَ استقبالٍ في فندقه فلديها كياسةٌ وحسنُ تصرفٍ مع الشخصيات المهمة. لم تمانع لكنها تدربت ليومين ثم انسحبت. كثيراً ما كانت الفتيات تنعتنها بالقابلة لكثرةِ معلوماتها عن طرقِ الإجهاض وحسابِ مدّة الدورة وعلاجِ بعض الالتهاباتِ وآلامِ المضاجعة الكريهة.

أحياناً يجمّدُ بعضُ الأشخاص المرء في شكلٍ ما ولا يعودُ بإمكانه الفكاك.

حتّى أنّها نَوَتْ أنْ تُعَزِّلَ قبوَها بمُفرَدِها مرّةً بعد أنِ اشتكى الجيرانُ من رائحةِ القيء والأكلِ المُتعفّن والصراصيرِ التي شوهِدَتْ وهي تدخلُ من تحت الباب وتخرج منه. لكنّ تسارعَ الأحداث مع قتيبة لجمها حقيقةً وضاعتْ كلّ إمكاناتها ومواهبها التي لم تُطَوَّرْ ولم

تُشذّب. وها هي الآن وقد تحوّلَتْ إلى باحثةٍ عن عملٍ حقير. كأنّ فهد اشتهى لها هذا أيضاً. لن تعطيه أيّ شَيْءٍ من حقيبتها.

ارتجفت شفتاها برداً فيما فهد واقفٌ قبالتها. افتعَلَ انزلاقاً ثلجياً عنيفاً كي يهبط جسمه فوقها فصدَّتهُ بيدها.

– كيف أستطيع مساعدتك؟ قولي لي.

– بأنْ تتلحلح. أعطني قيمتي يا أخي. مالك تسكّرُ الأبواب في وجهي؟ سأتعلّم اللغة أصلاً وأغلبك فيها.

– هاتِي ورقتي إذاً.

– لا أريد.

شدّت شهيناز الحقيبة نحوها ومشت مبتعدةً عنه.

سار خلفها ببطء وتقصّد عدم اللحاق بها. وقف بعيداً وصار يصيح:

– لا يجب على شهيناز أنْ تعامل فهد بهذه الطريقة.

– أنت مسخ!، قالت من دون أنْ تدير وجهها نحوه.

ارتبك فهد وحفَّ الثلج بحذائه.

– هذا المسخُ أوجدَكِ. أنسيتِ كيف وجدتُ لكِ بين ليلةٍ وضُحَاهَا قبواً في أفخمِ شارعٍ في العاصمة؟

انفعل فهد وأخذت عينه اليمنى تغمزُ قليلاً من دون إرادته، فقالت شهيناز ناظرةً إليه:

– آه هذا جميل. فلنبدأ الآنَ بمسلسلِ المذكّرات. أذكّرك بالمال الإضافيّ الذي أتيتك به حين نمتُ مع ابنيّ المسؤول على فراشٍ واحد أم نسيت؟ أم أعدُّ لك أقساط بيتك التي دفعتها من فرجي حين ضاجعتُ المُغترب الذي أعطى عنواني لكلّ أصدقائِه؟ لا سأخبركَ كيف حميتُ ابن عمّك من أنْ يُهرسَ قضيبه في المعتقل حين تكلّمتُ مع قتيبة لأجله. آه يا لغبائي. لم أتكلّم حقاً بل جعلتُه يركبني لساعاتٍ

متواصلة. ماذا تريدُ أيضاً؟ قبوٌ قلتَ لي؟ من أيِّ مستنقع أتيتَ ها؟ لك فهد.

اقتربت منه ثم ضربت صدره فتطايرت الرطوبة من على سطح جاكيته.

– كأنّك نسيت مَن هي شهيناز! أنا التي تدعس! ها؟ أفهمت؟

عادت أدراجها إلى السكن وشعرت لوهلةٍ بأنّ حرارة الصدام مع فهد أدفأتها قليلاً.

– خلص أنا لن أعود، قال فهد ومشى بالاتجاه الآخر.

وقف بعض الأشخاص بعيداً وبدأوا يتهامسون ويشيرون إلى صاحبَي النقاش المُحتدم ذاك. توقفت شهيناز وعادت أدراجها خطواتٍ عدة نحوه ثم قالت:

– ستعود. أنت هذا.

ورفعت قدمها اليمنى مشيرةً إلى حذائها. لا بل الأُخرى، ورفعت تلك التي بلا وردة.

– يا لهذه الأساليب. لو رأيتِ كيف حميتكِ البارحة من جنونك في الحفلِ لما قلتِ هذا، قال ونظر إلى الأرض كأنّه يستعطفها.

– إي ماذا قلتُ أنا؟ انظر كم تحميني جزمتي حتى أنّني لا أُغيّرها.

– أنا لم أعبث معكِ يوماً.

– لأنّك لم تتمكن بعد..

– حملتكِ على ظهري..

– آه يا للرقيق، ألهذا هو أحدبُ بشع؟ لا تحملني مرّةً أُخرى. تتصنّع أنّك نظيف نقيّ. أراك غداً فهد. سأتجمّد من البرد.

سارت بعيداً. صاح فهد مُجدداً:

– حملتكِ من عنده وأنتِ شبهُ جُثة. أنسيتِ؟

– ليتك لم تفعل!، همست واضعةً الشال على فمها ثم دفنت يديها في الجاكيت المنفوخة.

مرّت بين الرجالِ المراقبين لها متصنّعة عدم الاكتراث. التهمتها النظراتُ الفضولية. مؤكدٌ أنّهم رأوا فيها شهيناز الحسناء وأغوتهم مشيتها الثابتةُ فوق الثلجِ المُكدّس. قد أخفت «شبه الجثة» فيها بكلّ إتقان. نعم. اجتازت الباب الضيّق، ودخلت.

***

هذه الجدرانُ عازلةٌ لصوتِ الضحك.

منذ انتهائها من وجبةِ الفطورِ وحتى هذا الوقتِ المتأخرِ وهي جالسةٌ في الغرفة. طالَعَتْ صفحتها على الفيسبوك. انتقَلَتْ إلى صفحةِ النكات وضحِكَتْ من صميمِ قلبها. دخَنت كثيراً. مجّةٌ مع كُلّ نكتة. ومجّةٌ مع كل صورةٍ من صور أصدقائها. كانت جالسةً على فِراشِها حين دخلتْ شهيناز فجأةً. بدَت غاضبةً وصفعتِ الباب بقوةٍ خلفها. جعلتْ فردةً من جزمتها تخلعُ الأُخرى ثم خلعتِ الثانية وهي تسبُّ عليها. نظرتْ حولها في الغرفةِ كأنّها ناقمةٌ على أغراضِها أيضاً.

– لم تتأخري اليوم. لم تتمكيَجي. لم تطلبي مني بسكويتاً. ما لهُ الشارعُ اليوم؟

– الشارعُ اليوم ابن حرام، قالت شهيناز.

الكلُّ مُتقلبٌ ساخطٌ في اليومِ الأولِ من السنة. شعرَتْ راوية أيضاً بدقائقِ العمرِ المارّةِ مصدرةً تكّاتٍ تتصدّى. كنقرِ ملعقةٍ على حافةِ كأسٍ زجاجيٍّ فارغ.

الشهر الماضي استلمتْ إحدى العائلاتِ قرارَ قبولِ طلبِ لجوئها ومُنِحتْ إقامة لثلاثِ سنوات. حزمتِ العائلةُ متاعَها ووجدتْ بيتاً بسرعةٍ كبيرة وغادرت من دون أنْ تُخبرَ

الجيرانَ في الطابق. في عتمةِ الليل انسلّتْ كأشباحٍ وجدتْ قصراً مهجوراً آخر تُقيمُ فيه.

لم تلُمْها راوية، إذ إنّ ذلك يمكنُ تفهّمه.. راوية تنتظر الإقامة أيضاً وما إنْ تستلمها حتى تفكّر بالطريقة التي ستنسحبُ فيها من هذا المكان.

معذورةٌ صديقتُها.

– هاتِي هاتي واحدة، قالت شهيناز.

– ألفٌ لكِ.

نزلتْ راوية إلى الأسفل. أمسكتْ مظروف أوراقِ الدخانِ الموضوعِ على الطاولة. دقّته قليلاً بطرفِ إصبعها فتزحلقتْ كتلته. فَرَدَتْ ورقةَ سجائرَ بيضاء. وضعتْ فيها ما ستدخّنه شهيناز وفرفَدَتْها قليلاً. ثبّتتِ الفلتر في نهايةِ الورقة ثم لفّتها، رفعتها نحو فمها، بلّلتْ طرفها بلسانها، وألصقتها.

– أهذا كُلُّ ما في الأمر؟

أخذتها شهيناز منها ثم أشعلتها.

– بقي عليكِ أنْ تبلعي الدخان.

دخّنتا إلى جانبِ النافذةِ صامتتين. لا تُحبُّ راوية كثيراً هدرَ الأنفاسِ بالكلامِ حين تكونُ السجارةُ مُشتعلة، على الأقلّ في السّحباتِ الأولى.

في زاويةِ السطحِ، كانت جيهان ترى سجائرها المفروكةَ بالأرض بأعقابها الصفراء وتلمُّها كي لا تسدّ المزراب. لم تكن تهدِّدها، ككلّ الأمهاتِ، بأبيها. بعدها أصبحت الشظايا وفوارغُ الرصاص تُهدد راوية في زاوية الدخان تلك. الصدرُ أراد المزيد. الرّئتان توسلّتا. أصبحت تُدخّن في البيت.

– أنتِ، ماذا درستِ؟

سألتها شهيناز ونَفَثَتِ الدخان نحو الشباكِ المفتوح.

– درستُ سنتين بكلية الموسيقى ثمّ تركت. وأنتِ؟

– تربية!، قالت شهيناز.

– صحيح؟

– نعم، لكن لم تسنح لي الفرصة للعمل وقتاً طويلاً.

– أوه ما أكثر الفرص الضائعة، قالت راوية.

صمتٌ. دخّن الثلجُ في الخارج أيضاً ونَفَثَ الضباب.

– لستِ مُدرِّسةً تقليديّةً على ما أظن.

– طبعاً لستُ كذلك. أنا مُتحرِّرة وواعية وأفهمُ هذا الجيل.

– لكن، أشعرُ بأنّنا لا نعرف عن بَعضِنا الكثير، قالت راوية وهي تهرسُ عقب السيجارة.

– ليس مهماً، قالت شهيناز وفعلت مثلها.

– يقولون عنكِ أشياءَ كثيرة، قالت راوية.

ثم أحضرت علبة مزيلِ رائحةِ العرق، وبخّت في هواء الغرفة كي تبدد رائحة السجائر.

– لا أسهل من تلطيخِ سُمعةِ المدرِّسات الشريفات، أجابت شهيناز.

صمتتا قليلاً ثمّ قالت شهيناز:

– أتعلمين؟ منذ البارحة وأنا أشتهي التبولة.

– أوه، أنتِ قُلتِها. لديّ على ما أظن رُزمَتا بقدونس. أتمنّى أنْ لا تكونا قدِ اصفرّتا.

وراوية أيضاً تشتهي. هُناك دوماً ذاك النقص. تلك النقطةُ السوداءُ القاتمةُ في أكثرِ المشاهد اكتمالاً. الكلُّ إذاً أصبح النقصُ يحكّه. ينخزُ صدره. ليست هي فقط المُغتاظة منه. عائلةُ راوية الناقصةُ فرداً مثلاً. الغرفةُ التي تنقصها نافذة [illegible] الذي

تنقصهُ الاستدارة. ملابسها التي ينقصها رجلٌ يخلعها عنها. احتفالٌ عظيم ورقصٌ تنقصه مائدة. صحنُ تبولةٍ وكيك ناشفٌ غير محشيٍ بشيء، ذاك الذي كانت تحضّره جيهان لسهرات رأس السنة.

الزينةُ المُبهرةُ التي رأتها البارحةَ لمْ تستحضرْ في داخِلها أيّة ذكرى ولم تُحرّك في أعماقها حنيناً. لم تزد الاحتفال إلّا نقصاناً، وقتامة.

هرعت راوية نحو أبـوابِ الغرفِ الأُخرى في السكن. دقّتْها. أخذتْ ليمونةً وبصلاً أخضر من الطابق الأرضي. وبندورة من جارتِها القريبة. عادتْ إلى الغُرفةِ ونبشتْ خزنةَ المأكولاتِ لتجدَ كيساً فيه بقايا برغلٍ ناعم.

– هذا كافٍ، قالت شهيناز.

سحبتِ الكيسَ من يدها ثم أفرغتِ البرغلَ في صحنٍ ونقعته. رتّبت راوية باقةَ البقدونس ثم قصّت أعوادَها بالسكّين.

– لن يحدثَ أسوأُ من هذا، قالت راوية وحاولتْ فصلَ أوراقِ البقدونسِ الذابلةِ والمُصفرّة.

– لم يحدث أبداً شيءٌ أسوأ من هذا، أجابتْ شهيناز، وضحكتا معاً.

رتّبتا المكوّناتِ في المِصفاة ثم غسلتها راويـة على مهل. وضعت المِكتّ على الطاولةِ وحملت الخضارَ على صينيةٍ وضعتها إلى جانبها. جلست راوية وبدأت التقطيع. انشغلتْ شهيناز بتبديلِ ملابسِها.

يجب أنْ تُقَطِّعِ الرُزم وقطع البندورة ناعمة. راوية لم تُساعد جيهان في الطبخ إلّا بعدما أصبحت تلك وحيدةً ندّابة. كُلّ يومٍ تُجنّ وتهرعُ نحو البابِ تريد الوصول إلى أم عماد كي تخنقها. لجمتها

الجاراتُ ولم تلجمها راوية. تصنَّعَتْ أنّها تُحضِّرُ شيئاً ما ودخلتِ المطبخ. سنَّتِ السّكين. لا بل كُلّ السكاكينِ القابعةِ في الدروج.

- تبدو هذه السكّين جيدة، قالت شهيناز مشيرةً إلى البقدونس المفروم.

- الشطارةُ تكمنُ في الأصابعِ التي رضَّت الرزم.

ماذا لو أنّها تمنّت أنْ تنفقَ أم عماد؟ أنْ تكون أضحيةً عن الثلّة التي أخذتْ أبيها والمجموعةِ الأخرى التي سجنته، والفريقِ الأكبرِ الذي كان سبباً في كلِّ هذا؟ كان ذلك ليكون مُبهِراً كمعجزة. أنْ تنتقم سِكّين المطبخِ لأبٍ أكل من إثرها الكثير وظنّ الناسُ ما ظنّوه أنّه سُحق كنملةٍ طَرِيَّة.

حلمٌ قصيٌّ ذاك. أنْ يكون للأب المارقِ بين الأماكنِ كالظلِّ، كيان. أنْ يهابَ الآخرونَ بعدها الصمتَ النبيلَ الذي جعلَ السكاكينَ تنفلتُ من جوفِ الدروجِ وتصطكُّ في الهواءِ مُلاحقةً كُلّ من كان سبباً في هذا. تنغرِسَ في الأحشاءِ بالنبلِ ذاته. بالصمت ذاته.

من أين لها أنْ تُحاسب؟ كيف لها أنْ تُنفِّذ قصاصاً. كيف؟

راوية التي لعبتْ في الحارةِ بالدمى الطرية العتيقةِ وبقايا موادِّ البناء التي تُركتْ أمام البيوتِ الجديدةِ. راوية التي عاشتْ في بيتٍ بلا شُرفةٍ وكان المرمى الذي صوّبتِ الكرةَ نحوه مع بقيّةِ الأولادِ هو المسافةُ بين صندوقَي قمامةٍ ممتلئين.

«أصغرْ. أصغرْ»، قالت لنفسها وهي تقطّع البقدونس.

- ماذا تتعلمون في كليةِ الموسيقى؟، سألتها شهيناز ثم نَتَفَتْ ورقتي بقدونس وتذوّقتهما.

- النوتات والصولفيج والقليلُ من العزف، قالت راوية.

دفعتِ البقدونس المُقطّع ناعماً نحو جوف الصحن..

- فلتضعي لنا أغنية. لم أعتدْ أنْ أكون إلّا طرِبة.

- أوه كم أحبّكِ طلّابك إذاً.

- طلّابي كانوا يبجلونني. في الحقيقة، إنّني ما إنْ أدخلُ الصف حتى يقفوا لي استعداداً مثل الألف. انتصبت مُقلّدةً إياهم. كنتُ معلمةً نموذجيةً. كل المُوجِّهاتِ أتينَ لحضور درسي.

- هذا جدُّ جميل.

- ماذا تحبين؟، سألتها راوية.

- بعد سهرةِ البارحة وأغانيها ثقيلة الدمِ أريد قدوداً.

بإصبعها الصغيرِ الملوثِ بالبقدونس كبستْ راوية على حاسوبِها وشغّلت «على العقيق اجتمعنا».

- علّي، علّي.

أمالت شهيناز رأسها طرباً وتمايلت ببيجامتها الحمراء المطرّزة بغزلانٍ بيضاء دقيقة.

- أوه سأعلّي. هذه الجدران عازلةٌ لصوتِ النغمِ أيضاً.

ولوّحتْ راوية لها بالسكينِ المُخضّبة بالأخضر.

تغيّر مزاجُ هذه المُدرّسة بسرعةٍ وغنّت بأعلى صوتها: «من فيه عقلي ولُبّي دايماً مسلوب.»

من الأشياءِ التي افتَقَدَتْها راوية الفرحُ الأصيلُ. ذاك الذي يعيشهُ المرءُ قبل أنْ تقعَ الفجائع. الفرحُ اللذيذُ الذي يُخدِّرُ الذكرياتِ قليلاً، الذي يستلّه المرءُ من أتفهِ الأمورِ ليصرعَ به المتاعب.

اشتاقت أنْ يسري في جسدِها فرحٌ مُرتاح، مُتّقد، لا تخرقُ تواتره أحزانٌ أو يُعَكّرُ صفوَهُ ماضٍ. وهذا ما لم يعدْ بالإمكانِ أنْ يحصل. أصبحَ الفرحُ مشوباً بضوءِ الكشّافات المُداهِمةِ إلى الأبد.

أضافتِ البندورة وأمالتِ المِكتّةَ الخشبيةَ فوقَ الصحنِ كي ينزلَ عصيرُها. بدت شهيناز وهي مغمضةُ العينين في قمّةِ نشوَتِها. تلوّتْ. رقصتْ باحتراف. كأنّ عصائرها سالتْ أيضاً.

– تفقّدي البرغل، قالت راوية.

– كدتُ أنسى، ضحكتْ شهيناز.

انتهت الأغنية وأحضرتْ شهيناز صحنَ البرغل. أمسكتْ بقبضتها حفنَةً. عصرتها ورمتها داخل الصحن.

– طلاءُ أظافركِ بحاجةٍ إلى تجديد. لا يُمكنُ لأصابعِ مُدرّسةٍ مرموقةٍ أنْ تُهمل هكذا.

– غداً حين أستيقظُ تعتنين بي.

عصرتْ راويـة الليمونَ ثـم أضـافـتْ ملحاً وزيـتـاً وخلطت المكوّنات. عادتْ القدودُ مرَّةً أُخرى وسَلطَنَتْ شهيناز. دُقّ الباب بعنفٍ وصرخَ رجلٌ في الخارج:

– أخفضا الصوت أنتِ وهي، وإلّا نجلبُ الشرطة.

– فلتخرسْ وارحلْ من هنا.

– ما هذا؟ نسوان آخر زمن، قال الرجل كأنّما يردّ اعتباره منها.

انتفضت شهيناز من مكانها واتجهت نحو الباب قائلة:

– لنتواجه إذاً كي ترى النسوان على حقيقتها.

سُمع صوت أقدام الرجل وهو يولّي مُدبراً. جلست شهيناز ثم أخذت تنفضُ شعرها بيديها.

– عندي خِبرة بهذه النماذج، لا تقلقي، أردفت مُبرِّرة.

– يُفضّل أنْ نأكلَ من الصحن ذاته إذ لا توجدُ صحونٌ إضافية، قالت راوية. لكن قبلاً دعينا نأخذ صورة.

أحضرتْ راوية تلفونها. اقتربتِ الاثنتان من الصحن. رفعتْ راوية الجهازَ نحو الأعلى ثم ضغطتْ على الزر.

يمكن لوجهينِ أنْ يتقاربا إلى هذا الحدّ، أنْ يتشاركا صحناً بملعقتينِ متساويتيَ التقعر. بدتْ وجنتا شهيناز حمراوين، إذ إنّها

انتهت للتو من «وصلتِها». ابتسمتْ راوية في الصورةِ بحماسة وشوقٍ لتذوّق الصحنِ العفويّ ذاك.

ظهر في الصورةِ مُثلّثانِ وضلعٌ وحيدٌ أخفى رأسُ شهيناز بقيّته، فيما انعكسَ رأسُ رواية من الخلفِ على زجاجِ النافذةِ وراءها وبانَ التماعُ شاشةِ الهاتف أيضاً.

تناثرت نُداف البقدونسْ هُنَا وهناك على الطاولة. ابتلعت الاثنتانِ اللّقمَ الحامضةَ وتحدثتا. أغلقتْ راوية النافذة. غابتِ الشمسُ ولم يعدِ الثلجُ ظاهراً. بقي الإحساسُ به فقط.

– أنتظرُ الإقامةَ بفارغِ الصبر، قالت راوية.

– وبعدها ستنتظرين شيئاً آخر. أنا هكذا.

– أوه، العديدْ من الأشياءِ المهمة.

صمتتا وأصدرتِ الملعقتانِ رنيناً أثناء ارتطامهما بباطنِ الصحن.

– كيف حالُ فهد؟ قالت راوية.

– فهد العزيز سيساعدُني كي أحصلَ على وظيفةٍ في التدريس.

– هذا جيد حقاً، أجابتْ راوية ثم دفعتْ نحو فمها لقمةً كبيرة.

بدا جوعاً باهراً لصحنِ تبولة. ما زال البرغلُ قاسياً قليلاً ولكن ما من مشكلة. منذ زمنٍ لم تأكل راوية كما يجب، إذ إنّ إغلب أحاديثِ الأكلِ مع عِرفان مُضجرةٌ. شهيناز تسليةٌ مُغذية. ستظلّ مواظبةً على إحضارِ مكوّناتِ التبولةِ لها وإنْ تطلّب الأمرُ، ستجلبُ عرقاً يونانياً من ذاك الذي يبيعونه في المحلّات، «الأوزو»، لأجلها، كي تسردَ لها في دُوارِها شيئاً حميماً. تستجوبُ فيها راوية كلّ المحظوراتِ وتنهلُ منها علوم الجنس. كُلُّ ما كان ممنوعاً مُغيّباً، ستتعلّمه. ويوم تحبُّ راوية أحداً، ويُحبّها أحدٌ، ستفعله.

– ألديكِ حبيب؟، سألتها راوية وهي تلملم بملعقتها آخرَ اللقمِ من الصحن.

ابتسمت شهيناز ونظرتْ إلى الأفقِ نظرةَ عاشقة.

– آه نعم.

– ما اسمه؟

– فهد. عزيزي فهد.

– معقول؟

رمتْ راوية الملعقةَ في الصحن من دهشتها.

– فهد الحبيبُ الطيّب.

– في الحقيقة تبدوان متفاهِمين، قالت راوية.

– ليس طوالَ الوقت. لكن هذا هو الحال.

صمتتْ راوية ثم أردفت:

– والقُبلات؟

– كالأنفاس.

– أعلم أنّها ضرورية، لكن كيف نحصلُ عليها؟

– كما حصلنا على الليمونةِ اليوم.

– نتسوّلُها؟

– كما لو أنّنا نُحتضر، قالتْ شهيناز ومدّتْ يدها نحو وجهِ راوية، تنظف خدّها من بقايا بقدونس ناعمةٍ كانت قد عَلِقَتْ عليه.

***

حملتْ معها ورقةَ راوية هذهِ المرة.

في الساعةِ العاشرةِ وخمسٍ وعشرين دقيقةً عليها أنْ تكونَ في موقفِ الباصِ، إذ إنّه قادمٌ في العاشرةِ وسبعٍ وعشرين دقيقةً. رقمهُ

مئةٌ وستةُ عشر. عليها أنْ تصعدَ وتدفعَ ثم تأخذَ تذكرةً وتجدَ لنفسها مقعداً، وتنزلَ بعد محطتينِ لتجدَ المبنى أمامها.

كم كانت لاهية. شهورٌ عدة مرّت وهي تجالسُ ثروةً لا تُقدّر بثمن.

لامتْ نفسها على عدمِ اكتراثِها بتلكَ الفتاةِ المُقيمةِ معها في الغرفة والتي بإمكانها مساعدتُها في فهمِ بعض الكلماتِ وتنسيقِ التنقّلاتِ وتصنيف الأوراق كما أنّها تصرفُ وتشتري دخاناً ومأكولاتٍ لذيذةً وتضيّف شهيناز من دون مُحاسبة.

اليوم صباحاً أيقظتها ورتبتْ وجهها ببعض المكياج وحلّتها ببعض الشوكولا قائلةً إنّها تحتاجُها للمحاكمة. طلتْ لها أظافرها بكلِّ صبرٍ فيما كتمتْ شهيناز ضحكةً خرقاء كما في كلّ مرّة، من وجهها المربع الذي يُشبه أبطال أفلام الكرتون. ثروةٌ حقيقةٌ قد تُغنيها عن فهد في الأيام المقبلة، تلك الفتاة، بخاصّة أنّها ما زالتْ عذراءَ الجسدِ كُلياً. سألتْها عن البوس واللمس ومداعباتِ الأصابعِ وحجمِ القضيبِ الحقيقيّ بعيداً عن الصور والأفلام. يا للسعادة، سيكون بإمكانها الحصول على كلّ شيْءٍ منها مقابل بضع نصائحَ جنسيةٍ أو قصصٍ مثيرةٍ وأوصافٍ دقيقة. هذا ما طمأنتْ شهيناز نفسها به.

مرّ الباصُ في شوارع مُقفرة، إلى جانبِ الغابةِ المُعرّاةِ رغماً عنها. عبر بيوتاً لها حدائق صغيرةٌ صنع الأولاد فيها رجال ثلجٍ ذابوا آخذين أشكالاً مثل مخلوقاتٍ هُلامية، جزرةُ أنفٍ مائلةٌ نحو الأسفل، وشاحُ عُنقٍ أحاط بكتلةٍ صغيرةٍ مُتبقّية.

شُوِيَ رجل الثلج في حديقةٍ أخرى بالأرض إلّا أنّ وجهه بقي سليم الملامح. رأسٌ مُلتصق بالأرض يتصنّع ابتسامة. على شرفةِ أحد المنازل رجل ثلجٍ أعور كأنّهُ يتأمّل الأفق. فوق السطح الأمامي لإحدى

السيّارات امرأةٌ ثلج بقبعة أطفالٍ صوفيّةٍ وحول عنقها عُشيباتٌ قصيرة على هيئة عِقد.

غلبها الثلجُ بأشكالِه ولم تضحك. شهيناز المُستهزئة لم ترَ في الرقباتِ التي طواها الذوبان نهفةً ما، بل رأتها في رقباتِ الركّاب العجائزِ المَلويّة مع حركةِ الباص.

توقف الباصُ وهبطَ الناسُ بسلاسة.

ارتـدتْ شهيناز كنزتها الصوفيةَ ذاتها باللونِ الرماديّ هذه المرة. وضعتْ طاقيّتها الأرجوانيةَ الصوفيّةَ التي بدأت حبالُها ترتخي قليلاً عند الجبينِ وحـولَ الأذنـين. ضَـعُـفَ الخيطُ الـذي كان يشدُّ الطابة الصغيرة إلى كتلةِ الطاقيةِ فتحرَّكَتْ أكثر من اللازم وشعرتْ شهيناز بها.

يجب أنْ تحافظَ عليها قدرَ الإمكان. من غيرِ المُحتملِ إفلاتُ وردةٍ وكرة أرجوانيـةٍ في وقـتٍ واحـد. هبطتْ وحافظَت جاكيتُها الجميلةَ على مسافةٍ لا بأس بها بينها وبين العجائزِ البطيئين.

كثيرون انتظروا خارجاً. كُلَ حينٍ، يفتح باب المدخل الرئيسيّ ويطلّ شخصٌ يقرأ بضعةَ أسماءٍ يُسمحَ لها بالدخول بينما ينتظر الباقون أسماءهم. مُسنون يتلفّتون حولهم باحثين. بعض الأطفال يبكون من دون سبب.

نساءٌ بائسات. رجالٌ لا تليق بهم القبّعاتُ الصوفيّة السميكة. سودُ البشرة أو حِنطيّون ضخمو البنية أو قصار. ولا أحـد من هذا الجمعِ كشهيناز. ولا واحدة وضعتْ ألماسةً ملتمعة على مِنخرها، ولا واحدة أصرّتْ كشهيناز على أنْ تلبس الكعب العالي في هذا الصقيع.

المُشكلةُ أنّ تفرّدكِ هذا يا شهيناز، لن يخدمكِ في المحاكمة أبداً.

جميعهم عانوا ما عانوه. صحيحٌ أنّها جاءتْ بجوازِ سفرٍ مزوّر وركبتِ الطائرةَ كما كُلّ السائِحات. جرَّ فهد حقيبتها وسارَ وراءها

كالأجير. لكنّ ما يجمعها بهم هو شعورُ النفي الحاسم. بترِ الأذرعِ التي تشدُّ المرء إلى مكانه الأصليّ.

لا يمكن أنْ تمسّ أصابعُ القدمين، بعد الآن، الأرضَ القديمة. لكنّ هذا القاسم المُشترك ليس كافياً بالمرّة. أما من أحدٍ يُحبُّ التبولة مع العرق؟ يحفظُ أيّ مقصفٍ في العاصمة يقدّم أكثر الاستعراضاتِ إمتاعاً؟ لا أحد هُنا تمشّى إلى جانب سينما السفراء لسنوات من دون أنْ يشاهد فيها فيلماً؟ لا أحد..

وقفتْ شهيناز إلى جانب المدخل ووضعتْ شالها على فمها. حام الأولادُ حولها واصطدم رأسُ أحدهم بحقيبتها.

حين يقتربُ الأطفالُ من قدمي شهيناز لا تعرف كيف تستجيبُ لهم. لم تتعاملْ مع أطفالٍ صغار قبلاً. أُختها أنجبت ولدين في غيابها ولم ترهما. فأهل شهيناز قاطعوها تماماً منذ خرجت من البيت في ظُلمة ليلةٍ صيفيةٍ ساخنةٍ ولم تعد.

طفلٌ رقيقٌ بلا اسم.

قتيبة هو من جعلها تهتمُّ قليلاً لأمرِ الأولاد إذ كان يتحدّث عنهم بطريقةٍ مختلفة. كان يقولُ إنّهُ هو من يخلقهم وليس رحمُ أمّهم.

في اليوم الذي ولدت فيه نجلاء ضربَ قتيبة مع شهيناز موعداً مساءً. جاء مُضطرباً مهزوماً وقال إنّ هداةَ رضيعه هذا مُشينة. لطالما تمنّى لو نبتتْ أشواكٌ على جلودهم. كُلّما وُلد له صبيٌّ بحثَ فيه عن شوكٍ، عن مخلبٍ ينمو.

تمنّى لو أنّه جاء إلى هذا العالم بأولادٍ وخزين، ملتمعينَ كنصول السكاكين. لو أنّهم التهموا ذاك البكاءَ المُخزي وانقضّوا على الحياةِ لرعبولها منذ لحظة ولادتهم. تمنّى لو ركلوا بطن نجلاء حتّى شقّوه أو تقلّبوا بداخلها دافعين بكلّ الأحشاء بعيداً. كُلّما وصلَ إلى المشفى تمنّى غرفة ولادةٍ عاصفةٍ مقلوبةً رأساً على عقب ومزهريّاتٍ فقعَتِ

الورودُ فيها، وقطع شوكولا وحلوى ذابتْ من الحرارةِ التي خُلقت مع الرضيع.

تمنّى لو أنّ هؤلاء المولودين من صُلبه هزّوا المهدَ بصراخهم، وتسلّقَتْ أصواتُهم جدرانَ المشفى البائسِ كعريشةٍ حتّى تشقّقَ صُلبُها وانبَجَسَتْ منها المياه. يجب أنْ يعاينوا السماءَ بعيونهم في اليوم الأول. أنْ يمشوا في اليوم الثاني. وأنْ يتبعوا الرّياحَ، تدفعهم مِجسّاتُ الجبالِ المزروعة في رؤوسهم، في اليوم الثالث.

لكنّهم ما إنْ غُمِسوا في بياضِ الأغطيةِ حتّى أصابَهم سُباتٌ. خمولٌ تحرّكوا بسببه بالكاد. ولانَتْ أجسادهم وتقلّصَتْ.

وأبقى ابنهُ الرابع بلا اسم.

حديقةُ بناءِ المحكمةِ واسعةٌ. ذاب الثلجُ تماماً عن أرضها المُعَبّدة بالحجارةِ ولكنه بقي متشبّثاً بالعشبِ المتوزعِ في الزوايا حول قواعد الأشجار. أخذ مرّةً شكلَ جليدٍ شفّاف ومرّةً شكل كتل بيضاء كتيمة.. ثلوجٌ دبِقة.

لعبَ الأولادُ بالكتلِ حتى احمرّت أكفّهمُ الصغيرة. سُمعت أصواتُ غِربانٍ واثقةٍ اعتلتِ الشجر وكأنّها امتلكتِ المكان، حَفِظَتْهُ، احترفتِ التجوّل فيه دونما رقيب. غِربان سوداءُ لم تَر شهيناز لها مثيلاً، تمشّت بين بقايا الثلج، نقرتها، ثم عادتْ إلى أغصانِها.

يُفترضُ بالشخصِ القادمِ إلى المُحاكمةِ أنْ يتصنّع اضطراباتٍ نفسيةً ما. أنْ يبدوَ خائفاً مُصاباً بعقدةِ أصواتِ القذائفِ، أنْ يسدّ أذنيهِ عند مرورِ الطائراتِ وأنْ يتجنّبَ الحديثَ مع الناس لأنّه مصابٌ برُهابٍ اجتماعيّ مثلاً.

ممّا يُمكن أنْ يحصلَ له في وقتِ الانتظارِ المريرِ هذا وتحت وطأة الطقسِ المتجمّدِ هو أنْ تتبدّى حياتُه كاملةً أمام عينيه. يتذكّر

مآسيَهُ وأخطاءهُ وما جناهُ عليه والداهُ وما أطعمته إياه الحياةُ من خراءٍ ويشتمَ كُلّ ما أوصله كي يكونَ واقِفاً على بابِ مبنى الأجانب هذا يستجدي الدفء.

لقد كذبتْ شهيناز كثيراً في حياتها بسببٍ أو بلا سبب. كذبتْ حدّ الهوسِ وكأنّ لسانها لم يكن مُصمماً كي يقول الحقيقة وإنّما كي يلعقها بنعومةٍ فقط. لكن الكذبَ على الأجانبِ لا بدّ يحتاج حِنكةً وخبرة. الأهم هو أنْ يعطوها إقامةً صدّقوها أم لا. وإنْ حصروها في الزاويةِ فستقول حقيقتها التي صنعتها كَذباتُها.

ستقولُ إنّها قحباءُ طُردتْ من البلدِ في الليلةِ الوحيدةِ التي لم تكن فيها قحباءَ بالفعل.

منذ أشهرٍ، حين سلّمتْ نفسها إلى مركزِ الشرطةِ، كان شكلها مُريباً. شعرُها قصيرٌ للغاية. نحيلةٌ بشدّةٍ. أسفلُ عينيها وجفناها منتفخانِ لدرجةِ أنّها بالكادِ كانت قادرةً على رؤيةِ طريقِ رحلتها. عاملها فهد كما كان على الكِذبة أنْ تُحاك. قالا إنّهما حبيبان فرّا من اضطهادِ عائلتيهما المتصارعتين بسبب المذاهب. عائلةُ فهد مع النظامِ وعائلةُ شهيناز ضده. لقد كادَ أحدُ إخوةِ شهيناز أنْ يطعنها بسكينٍ في بطنها وهي خارجةٌ من باب البيت. أما فهد فقد دبّروا له مكيدةً كي يقع بين أيدي الجيشِ الحرّ وينالَ نصيبه. تقاتلتِ العائلتانِ وتضاربَ الأبناءُ وهُدِّد العاشقان في مشاهدَ تشبهُ كلّ المسلسلات المشوّقة.

كان الروي مسليّاً، تمثيلُ الاضطهادِ سهلاً للغاية. لم تستطع عينا شهيناز المنفوختينِ أنْ تبكيا، ولا طالَ فمُ فهدْ المتقرّحِ شفتيها مع أنّهما محبوبانِ إلى درجةِ الهرب. وحين تكلّمت شهيناز عن عائلتها المُفترضة سرحتْ في أفقِ الحكاياتِ. الكذب مُمتع جداً. تخيّلي يا شهيناز أيّ شيءٍ تريدينهُ وارويهِ كما لو أنّه حصل. أطلقي على

الإخوةِ أسماءَ واحشري مختارَ الضيعةِ في القصة. كلّ من تريدين. حتّى هُبلانُ الضيعةِ رفعوا في وجهكِ العصيّ. نعم نعم لقد لاحقوكِ. ليس سهلاً أن يكون لدى الإنسانِ موقف.

فُتِحَ البابُ ونادى أحدُ الموظفين على أربعةِ أشخاصٍ بينما اشتكى البقيّةُ من طولِ مدّةِ الانتظار. جلستْ على مقعدِ مكانَ أحدِ الداخلين. باعدتْ ساقيها وحلّتْ سحّابَ جاكيتها وهزّت فخذيها مترقّبةً متوتّرة. أخذ اللاجئونَ البردانون يُبصبصون. لمحتهمْ، سمعتْ تمتماتهم.

متلحّفةٌ بأكثر الثياب سُمكاً وفظاظةً، ومع هذا، بدت مُغرية. وهذا هو الحال، غَرَفَ السيّد أبو الولدينِ من جسمها المكاييلَ. مع أنّ ولديه تمسّكا به وشدّاهُ من بنطاله، ووضع أحدهما كفّه الصغيرةَ على خدّه محاولاً إقناعهُ بالالتفاتِ إليه.

شهيناز سخيّة. كريمةٌ بكلّ ما يتعلّق بالجسد. يشعرُ بهذا الناظر إليها فيستبيحُها.

دائماً كانت أُعطياتُها مختلفةً ومُتميزة. حين فكّرت أنْ تُهدي الأبَ الجديدَ، اختارتْ شيئاً لا يخطرُ على البال. كانت الهديّةُ وسيلةً كي يشعرَ الأبُ أنّ ولادةً عظيمةً قد حصلت. مرحلةً جديدةً من الحياة قد بدأتْ. شهيناز مخلصةٌ لعَمَلِها. ولطالما تفَنَّنَتْ في استحضارِ أفكارٍ وبِدعٍ استمدَّتْها مِنه. مرةً مثَّلتْ عليه أنَّها سيّدةُ مجتمعٍ بجينزٍ ضيقٍ متعاليةٌ مغرورةٌ وعليه ترويضُها وجعلُها تتذلّل أمامه. مرّة أنّها مُذنبةٌ خائنةٌ استحقّتِ العِقاب. بائعةٌ جوّالةٌ لا يعرفها وعَلَيْهِ أنْ يُضاجع فيها جوعها الحارقَ للرجال من دون أنْ يعرف اسمها أو أي شَيْءٍ عنها. عذراءُ تَكتَشِفُ جسداً للمرّةِ الأولى. ربّةُ منزلٍ مُترددةٌ متوجّسةٌ من أنْ يراها أحدٌ ما ويضبطها معه، تتصنَّعُ قِلّةَ الحيلة ثم تُلهب فمه بقبلٍ.

كم شحنتْ شهيناز خيالها وتجاربها من أجله. اعترف لها مرّةً أنّه أقبَلَ على عمله متحمساً شغوفاً. حقَّقَ، ضرب، نكّل بهمّةٍ. أنهى مناوباتِه ثمّ هرعَ نحو وعودِها له بتمثيليّةٍ جديدة.

فتحتْ حقيبتها وأخرجتْ علبةَ العِلكة. لقد وضعتها في الجيب الجانبيّ تحسُّباً، لعلمها بما ينتظرها من انفعال. إنّه واحدٌ من تلك الأيّام التي تكون فيها حياتها على المحكّ. حاولت دوماً ألا تستهلك السجائر بكثرةٍ في أيامٍ صعبةٍ كهذه، فهي تُصيبُ الفرجَ بالتجفافِ وتجعلُ بشرةَ الوجه قاحلة.

جسمها الجميل هو كلّ حيلتها. حين فتحَ قتيبة غلافَ هديّتها وجد حقيبةَ سمسونايت كبيرة. نظر إلى شهيناز نظرةَ ارتيابٍ فطمأنتهُ قائلةً إنّ الرّجَال في الأسفلِ قد فتشوا هديّتها ووافقوا على أنْ تحملها له، إلّا أنّه بقي واضعاً يدهُ اليُمنى على مُسدّس خصره احتياطاً. كانت تعلمُ أنّ الضبّاطَ ما عادوا يثقون حتّى بمسدّساتِهم التي لقّموها بأنفسهم وحملوها أينما حلّوا.

قضيبٌ جيلاتيني زهريّ. آخرُ بفقاعاتٍ صغيرةٍ على طوله. حزامٌ جلديٌّ رفيعٌ مدوَّر يُلَفُّ حولَ محيطِ الرأسِ وفي مقدمتهِ كرةٌ سوداءُ توضعُ في الفم. عصاباتٌ ملونةٌ وأطواقٌ مزينةٌ بالريش لتلفّ حولَ الرقبةِ وأُخرى للمعصمين. سياطٌ جلديةٌ وعُصيّ قصيرةٌ في آخرها قطعُ جلدٍ مربعةٌ بحوافٍ مدروزةٍ بإتقان. مشابكُ تشبه ملاقطَ الغسيلِ لقرصِ الحُلْمات. وقطعٌ بلاستيكيةٌ مزودةٌ ببطارياتٍ ترجُّ وتهتزُّ وتهزُّ الأعضاءَ معها. سوطٌ طويلٌ ورفيع وآخر جلديٌّ عريضٌ. قناعٌ أسودُ بفتحاتٍ عند العينينِ والفمِ والأنفِ فقط وله أذنا قِطّة. العديدُ من السلاسلِ وحبالِ الريش. كانت تلكَ مجموعةً خاصّة وغاليةَ الثمنِ ادّخَرَتْ ثمنها لشهورٍ طوال ثم كلّفت رفيقتها القادمة من السفرِ بأن تجلبها لها. لقد سئمتِ العُصاباتِ الرخيصةِ التي لا تعزلُ العينينِ

بشكلٍ كافٍ والمشابكَ سَيِّئَةَ الصنعِ والتي تثبتُ على الحلمةِ مرّةً أو اثنتين ثمّ تهترىء. والسياطَ التي تفتقدُ إلى المرونةِ والمضاربَ الجلدية التي لا تلسعُ الإليتين.

في يوم احتفاله بأبوّتهِ مدّدها عاريةً على بطنها فوقَ السرير. خلعَ ثيابه وحامَ حولها بهدوءٍ بينما دفنتْ وجهها في اللحافِ كي يحلوَ الترقّب والتنعمُ بالمفاجآت. ضغَطَ كتفيها بيديه ثم جابتْ أصابعهُ فقراتِ ظهرها. دسّها بالتتابعِ بين إليتيها. علت تأوّهاتُها الكتيمةُ فحرّضته على المجون.

عُريّ قتيبة الهائمُ حولها كان يعني أنّها اشتعالُ نار. ضربه لها وهو متعرّقٌ مهووسٌ بتلمّس السياط قبل التلويح بها كان ولوجاً، عبر المسام. حفيفُ صوتِه الهانئِ حين أبعدَ كفّها عن محطٍّ ضرباتِه كان كفيلاً بأنْ تنبجس منها سوائلُ اللذةِ مجتمعةً. وحين استلقتْ على ظهرها رأتهُ من خلف القِناع الذي وضعه على وجهها. عضَّ شفتيهِ بأسنانِهِ أمام منظرِ فخذيها المُحمرّين ورنينِ الملاقطِ التي عقصتْ حلمتيها كُلَّمَا تحرّكت. من خلال فتحةِ العينينِ الضيّقةِ تابَعَتْ حركته حتّى اقتربَ منها وأصبحَ جذعهُ أمام وجهها. فتحتْ فمها له متأوّهة لا يسعها انتظار أنْ يُسخِنَ الدمُ المُتدفقُ في قضيبهِ شفتيها.

بعدما تعرّفَ قتيبة على الحقيبةِ أصبحَ مسعوراً وزادَ من أوقاتِ لقائهما. نحلتْ شهيناز بشدّة وآلَمَتها مفاصِلُها. اشترتْ كريماً خاصاً بالحروقِ وآخر ضدّ الكدماتِ كي تدهنَ إليتيها وظهرها وأحياناً ثدييها. احتقنَ بظرها من تلاحُقِ الرّعشاتِ وكثرَتِها وآلَمَها أثناء التبوّل. ازرقّت حلمتاها من الملاقطِ لوقتٍ طويل.

ذلك أنّ قتيبة صارَ يأكلها كموجةِ جراد. يهجمُ على الحقيبةِ ينتشلُ منها مضرباً كُلّ مرّةً. يناوشُ إليتيها قليلاً ثم يضربها. يقلّبُها كما لو أنّها قطعةُ لحمٍ تُشوى. يُمسك فخذيها المُشعرّين ويلحُ ألمها.

آه، لن يعلموا أبداً بماذا تُفكّر هي الآن، قالت لنفسها وعدّلت الطاقيةَ على رأسها.

هذا المكانُ بضجيجهِ الذي لا يحمل أيّ معنى، بشكوى النّاس التي تبخّرَتْ في الصقيع، بالرجاءاتِ التي يتفننُ المرءُ في جعلها بليغةً، ذكّرها بلسعِ قتيبة البليغِ لجلدها.

ذلك أنّها جلبت لنفسها بنفسها كُلّ هذا وجنتْ على حياتِها باندفاعها. هي التي قدِمَتْ بقدميها إلى مبنى الشرطةِ وسلّمتْ نفسها للسلطاتِ على أنّها طالبةٌ للجوء. هي التي تتوسّلُ الآن من أجل محاكمةٍ عفيفةٍ بأقلّ قدرٍ من الإذلالِ إذ لم يعد بإمكانها أن تتواضع أكثر. هي التي جنتْ وهي التي ستدفع الأثمان.

نُودي على شهيناز أخيراً فقامتْ من مكانِها ودخلتْ.

نحو الدفء الحميم..

غُرفةُ المحاكمِ. صغيرةٌ دافئةٌ بشدّة حتى ليخيّل للمرءِ أنّ موقداً محشوّاً بالحطب يشتعلُ في الزاوية. من جهة اليمين نافذةٌ واسعةٌ أُسدلتْ عليها ستائر على شكلِ قطعٍ مُتباعدة لا تحجبُ الضوءَ أو الرؤيةَ بشكلٍ كامل.

بإمكانِ القاضي أنْ يرى المُنتظرينَ خارجاً. تحادَثوا. نَفَثوا بخارَ البردِ في وجوهِ أولادهم وهم لا يرونَهُ.

هُناك ثلاثةُ أشخاص. عرّفها المُترجمُ بنفسه وطلبَ منها الجلوس. سلّم عليها القاضي وأشار لها بيده أنْ تتفضل. كان طويلَ القامةِ نحيلاً لا يتقدّمه كِرش. حليقَ الذقنِ بدقّةٍ كما لو أنّه حلقها استعداداً لحفلةٍ ما.

أسند نظارته إلى عظمِ أنفه بعيداً عن عينيه قليلاً كما يفعلُ العُقلاء، وبدت عيناهُ زرقاوين ناصِعتينِ بشكلٍ غير طبيعيّ. إمّا أنّها عدساتٌ لاصقةٌ أو أنّ هذا الشخصَ ينتمي إلى عِرقٍ مختلفٍ من

البشر، قالت لنفسها. كان خطُّ التقاءِ شعرهِ الرماديّ بجبهتهِ مُحدداً بإتقان. بين حاجبيه ثلمٌ صغيرٌ علامة العبوس. الجديّون يضحكونها دوماً. تخيَّلَتْ أنّه سيبقى عابِساً حتى في أكثر المواقف إحراجاً. إنْ وقعَ هذا القاضي عن الكُرسيّ فإنّه سيقومُ بكلّ جدّية كي لا يضحك منه أحد. لئن عطسَ وسالَ أنفه فإنّه سيعبس. وها هو إذ رأى امرأةً مغريةً ارتفعتْ حرارةُ جسمهِ واحتقن قضيبهُ وارتبكَ إلّا أنّه بقي مُكفهراً. ليستْ على شهيناز كلّ هذي الألاعيب.

ألصقتِ العلكةَ بسقف حلقها.

ستقولُ تأخرتمْ عليّ. حقاً. تلك الصغيرةُ التي تكادُ تقبرُ نفسها في الغُرفةِ قد أجرتِ المحاكمةَ منذ مدةٍ واستعَدَّتْ لاستلامِ الإقامة. شهيناز التي غنَّجَتِ الهواء، داعَبَتِ الليلَ الحزين، أغوتِ الأشجارَ التي نزَفَتْ ثلجاً، وزادَتْ تورّد الطرقاتِ الشاحبة، تستحقّ مُعاملةً أفضل واستقبالاً يليقُ بما حمَلَتهُ معها من أزاهير.

– نريدُ أنْ نعرف منكِ، لماذا أتيتِ إلى هُنَا..، سألها المترجم.

تلعثمتْ شهيناز بالعلكةِ فابتلعتها. ذلك أفضل.

– طلباً للأمان، قالت ونظرت إلى المُترجم نظرةَ قِطّةٍ شريدةٍ.

أمانُ قبوِها. ذاك المكان الأكثرُ حجباً للرصاصِ والشظايا. لا شُبّاكَ كي تطرقهُ فوارغُ الرصاصاتِ ولا سقيفةَ لديها تُخبّىء فيها الهاربين. وما هابَتْ شهيناز شيئاً. المُرعِبون كُلّهم لديها. عرفَتْ مواعيدهم وأوقاتَ عملهم. السفّاحون قربُوهَا في أوقاتِ نسيانهم للدم. أتَوها في شُباتِهم.

لم تعرف منهم سوى رقصهم ولم تمسسها أجسادُهم إلّا وهم أحنّاء كالملائكة. مُرهفون كزغبٍ. لحسوا جلدها بألسنةٍ بخفةِ الريش. وماذا بعدُ هذا؟ فرغُ قتيبة بمن فيه كان مُخيفاً حدَّ الارتجاف، لكنّ

قتيبة كان بالمُقابِلِ مِضيافاً وخدوماً إذ أمر السائق بأنْ يوصلها في كُلِّ مرة.

جاءتْ إلى هُنَا تطلبُ الأمان ذاته. تنشدُ تلك الطمأنينة التي اعترتها حين يَكُونُ قتيبة معها في الشقة وليس في أيّ مكانٍ آخر. عاشتْ في ذلك العُش كعصفورةٍ صغيرةٍ. غرّدتْ مع كُل رعشة. على الأرجح أنه ليس لديهم الأمان ذاته. إنَ الأعشاش تقزمدتْ. أصبحت خاويةً مُطقطقةَ الزوايا في هذا البرد..

– أين سكنتِ في بلدك؟، سألها المُترجم.

تنهّدت ثم قالت بصوتٍ خفيض:

– خلف سينما السفراء، في شارع 29 أيار، حيث كانت الأفلامُ تُعرضُ مساءً. كما أنَ هُناكَ قهوةً يلعبُ فيها الشبابُ الشدّة وطاولة الزهر – هزّت برأسها مؤكدةً ثقتها بكلامِها – نزلتْ مرّةً قذيفةٌ في الشارعِ المقابل إلى جانبِ محلّ الأدواتِ المنزلية. تكسّرت الأواني. احترقتِ الغسّالات.

قالت وكتمتْ ضحكة، إذ إنّ تلك التفاصيل بدتْ كما لو أنّ التي روتها عاشتْ في قلبِ الحدث.

وقتَ القذائفِ صباحاً أمضتهُ شهيناز نائمة. مساءً كان صوتُ الأغاني أعلى من أيّ سلاحٍ فتّاك. أعلى من راجماتِ الصواريخ. وحين كانت مع قتيبة تعطّلتِ الحواس التي وصَلَتْها بالعالم.

– نريدُ أنْ نعرف منكِ الأخطارَ التي تواجه حضرتك في بلدك؟

– حضرتي؟ يا ويلي، أيةُ مخاطر.

لوتْ شفتيها بسخريةٍ ثم أردفت ناظرةً إلى خشبِ المكتب عابثةً بحافّتهِ بإصبعها.

– أنا وفهد نحبّ بعضَنا منذ سنوات. ابن عمّه شبّيح، وخاله لواء. وأنا ماتَ من عائلتي الكثيرون في السجنِ وتحت القصف. الأهلُ

كادوا يصنعونَ حرباً خاصة بهم. مرّةً – ونظرت إلى المترجم وتوسّعت نظرتها – وأقول لك، حدث هذا منذ.. منذ.. سأقول في شهرِ شباط الماضي على ما أعتقد.. قبل أنْ أهربَ بشهر. هجمَ أفرادُ عصابةِ ابن عمّه على بيتنا وضربوا أبي وبصقوا في وجه أمي. آه يا للمرارة!، قالت وعصرتْ عينيها برفّاتٍ مُتلاحقةٍ كي تذرف دمعاً. تشنّج صوتها وهزّتْ رجلها أكثر. لو عرف فهد بهذا لما رضي وكان قاتلهم. لكنّهم غافلوه. هدّدونا بأخذ بابا إنْ لم ننتقل من الحيّ بأكمله قائلين إنّ الحيّ لهم هم.. الحبّ صعبٌ في هذا الزمن. آه يا لفظاعة ما حصل!

خلعتْ قبّعتها وأخذت تُمسّد رأسها بكفّيها المتعرّقتين. ترجم الرجل إلى جانبها ما قالته.

– هدّدني بعدها والداي بأنْ لا أرى فهد مرّةً أُخرى. وحين التقيتُ به لأخبره ما فعلهُ أقرباؤه بِنَا، وشى بي أحد الشباب، حين رآنا معاً، لأبي.

فتحتْ حقيبتها والتقطت بالأظافر المطليةِ مظروفاً مربعاً وناولته للقاضي، فيه صورتُها حين ضربها والدُها حتّى النخاع، كما قالت.

صوّرها فهد مرتديةً قبعةً غطّت كامل رأسها. ملأتْ وجناتها كدماتٌ زرقاء. وفوق شفتها العليا جرحٌ عميقٌ بشكلِ خطّين يلتقيان بزاويةٍ حادّةٍ تحت فتحة أنفها بقليل. زُرِعَتْ رقبتها بخطوطٍ طوليّة شكّلها دمٌ مُتخثر. تورّمَتْ شفتها السُّفلى من الجهة اليُمنى. خفَّ الورمُ حتّى منتصفها وبقيت الجهة اليُسرى مِنْهَا سليمة. حاجباها مُتقطّعا اللون كما لو أنّهما حُلقا. لم تتمكّن من إغلاقِ فمها فبدت فتحته فتحةَ اندهاشٍ. أما عيناها فذابلتان. كما لو أنّها بكت لأيّامٍ دمعاً ساخناً.

نظر القاضي إليها ثم هزّ برأسه فيما أكمل المترجم سرد قِصّتها.

عليه أنْ يكون دقيقاً في انتقاء العبارات، فنّاناً في رصفِ الجُمل.
كان المترجمُ حنطيّ البشرة غطّتْ وجهه ندباتُ حبِّ الشباب فتركَ ذقنه تنمو قليلاً كي تُخفيها إلّا أنّ الندوب وصلت حتّى وجنتيه. كما أنّه كان يلدَغ ببعضِ الحروف. هكذا شعرت شهيناز. مدَّ لسانه أثناء الكلامِ كثعبان. ستسمّي القاضيَ «صاحب الأسنان الفرق» والمُترجمَ «سابع رؤوس الحيّة».

تناولتِ المظروفَ من القاضي ثم دسّته في حقيبتها وأغلقتِ السحّاب.

شهيناز الراسبة. الأخيرةُ في ترتيبِ الصف. الفاشلةُ في الإملاء والعلوم والحفظ. المُستهترة دوماً بكتبٍ مشقوقةٍ ودفاترَ شبه خالية وأوراق مذاكرةٍ تكادُ تخلو إلَّا من اسمها، استطاعت مُغافلةَ الجميع. أوظنّت أُمها أنّها، بعدما صارتْ تتمشى مع بنتِ الجيرانِ في شوارع الشام، ستعود إلى حضنها تتوسل مسامحتها من أجلِ كسلها في المدرسة وبضعِ علاماتٍ ناقصة؟

تذكّرتْ نفسها منذ سنواتٍ حين قرّرت أنْ تتصلَ بأمّها بعد مغافلتها لها وهربها من بيت أهلها واتخاذها القبو مسكناً. وقتها رفعت سمّاعة الهاتف وقالت بصوتٍ خنوعٍ مسكين تدربت عليه لبعضِ الوقت قبل أنْ تتصل وهي تسدّ أنفها بإصبعيها قليلاً:

– ماما سامحيني.

صمتتْ أمها على الخط ثم قالت:

– يا بنت الكلب.. إنِ اتصلتِ مر..

حينها، أغلقتِ السماعة بسرعة وظلّت تضحكُ حتى تخدّر حنكها وتجرّحت حنجرتها. ضحكت وكأنّها عَمِلَتْ مقلباً مع أحدِ المُغفلين. تخيلتْ أمّها وهي تستمرُّ بالسبابِ والوعيد وضحكت كأنّها مشاك[illegible] تعثّرها وتوقعها.

جعلوها تقرأ أقوالها مرّةً أخرى ثم وقّعت في ذيلِ الملف. يجب أنْ يكون ذاتَه الذي وقّعته في مركز الشرطة أول ما وصلت. تدرّبت عليه مراتٍ عديدة. نعم، يظلُّ أكثر فخامةً وحضارةً من البصمة.

سنٌّ، اثنانِ، ثلاثة، ثم نصف دائرة. نقطةٌ فوق كلِّ سِن. مدَّتْ من نهاية الحرف خطّاً نحو اليسار وشخبطت فوقه آخر نحو اليمين وصل حتى الربع الأخير من الحرف. ثمّ نحو الأعلى يا شهيناز كعمودِ الإنارةِ عند مدخلِ قبوكِ، ذاك الذي ظلّ يغمز لأسبوعٍ قبل رحيلكِ كي يُنذركِ بما سيحصل. هكذا فقط هو توقيعك. دعي رسمَ العمود ممشوقاً هكذا واجعليه منتصباً دوماً.

حين خرجتْ شهيناز من المُحاكمة أغلقَ الموظفُ الباب وبقيت خارِجاً، تضحك. استَنَدَتْ إلى جدارِ البناء. وضعتْ يدها على صدرها كي تتمكن من التقاطِ أنفاسِها من وقع القهقهات. ضحِكَتْ وظلَّتِ الطابة الأرجوانيةُ تهتزُّ حتى اهترأ خيطها ووقعت متدحرجةً على الأرض.

***

عاصفةُ السوتيانات.

إنّها تترنّح هَا هُنَا في الكيس مع حركة راوية. هناك أغنية تقول إنّ السماء تمطر رجالاً، لكنّ راوية تُفضل أنْ تكون للسوتياناتِ عاصفة.

جميعها بأجملِ التطريزات وبقياسِ الفِتنة تطايَرتْ من دون أنْ تحُطّ. كأنّها ها هُنَا أمامَها وهي تقفز كي تلتقط منها ولو لمسة. لكنَّ العاصفةَ هبَّتْ. غضِبَتْ. دارتِ السوتيانات في زوبعةٍ هائلة كما لو أنّها قطعُ فواكه طازجة تدور في الخلّاط. ولم تتمكّن راوية من لبس إحداها. لم تغبّها الزوبعةُ معها كفمٍ يمصُّ من قشّة. علاقةٌ راوية غريبةٌ بالمُتع المُتطايرة.

كأنّ راوية ثورٌ ضخم، صارَعَتهُ الحَيَاةُ بسوتيان، بدلاً من قِطعة قماشٍ حمراء.

دهنت أظافرها منذ الصباحِ بـ«الطلاء الفرنسي». مُقدّمة الظفر بيضاءُ ومساحته شفافةٌ قليلاً. ثم فتحت علبة الرسوم الدقيقة وأخرجت المسبار ذي النهايةِ المُستدقّة. ألصقتْ بواسطته رسم ذرّة ثلجٍ ناعمة بشكلها الهندسيّ المُنتظم، على الإبهام، وعلى الوُسطَى.

هكذا اتحدت اليدان بالطقس.

ثم نفشت غِرّتها ووقفت أمام المرآة وتدرّبت كيف أنّها ستقول للبائع برقّةٍ مُفعمةٍ بالثقة إنها ستردُّ المُشتريات. رأت أنّ غِرّتها قد طالت وستغطّي عينيها. أحضرتْ مقصاً وأمسكتها بيدها. لفّتها دورتين ثمّ قصّت. رمت الشعرَ في سلّة النفايات وسعدت بطلّتها الجديدة المُشاكِسة.

قد «تهندزت» اليوم من أجلِ طقسٍ جميل: إعادةُ السوتيانات إلى المحل. هذا ما تفعله عادةً، إذ إنّها لا تعرفُ أيُّها أجمل. لا رجلَ ينتقي لها أكثرها إغراءً والتصاقاً بجسدها وهي ليست قادرةً بعد على تقييم هذا. إنّها ثقيلةٌ كطوبٍ في أوقاتٍ وخفيّةٌ كما لو أنّها لا تلبسها، في أوقاتٍ أُخرى. سيأتي يومٌ لا تردُّ فيه حمّالات الصدر التي قاستها مراتٍ عدّة، إلى مخازنها في السوق. قالت لها شهيناز إنّ الثياب الداخليّة تهمُّ المُبتدئين فقط، أمّا المتمرّسون بالجنس فهم لا يُلْقُون بالاً لتفاصيل الثياب. لكنّ راوية وفي كُلّ الأفلامِ التي تتفرّج عليها -أحياناً- ترى الفتياتِ يُداعِبن خيوط ثيابهنّ الداخلية ويشددنها ثم يفلتنها في حركةٍ لذيذة. أرادت راوية أنْ تُقلّدهنّ.

تلك الأفلامُ التي تُغطّي نفسها وحاسوبها باللحاف كي تُشاهدها وهي تضعُ سمّاعاتٍ على أذنيها كي لا تُباغِتها شهيناز أو إحدى الجاراتِ الفضولِيّات. لفَتتها في بعض الأحيانِ غرف النوم الفخمة

والستائر الرقيقة ومرّةً شاهدت فيلماً تجري أحداثه في غابةٍ حيث ركن الشاب سيّارته واقتاد محبوبته نحو الأشجار المُلتفّةِ ذات الجذوع العتيقة. أعادت ذلك الفيلم مراتٍ عدّة. فقد بدت تلك الغابة عذراءَ تماماً لم تطأها قدمٌ قبلاً، وقد نشر المحبوبانِ في عزلتها بهجةَ جسديهما.

أصبح لكلّ شعورٍ ينتابها فيلمٌ خاص. إنْ حطّ الليلُ وهي في الغرفةِ وحيدةً شعرت بالغُربة وتفرّجتْ على فيلمٍ يتحدث فيه العشيقانِ بلغةٍ أجنبية، كي تكسر شعورها ذاك. وإنْ عاتبتها جيهان وانتقصتْ من قيمة المالِ الذي ترسله لها تفرّجت على فيلمٍ لثريٍّ خمسينيّ يمارسُ الجنس مع صبيّةٍ صغيرة. ومرّاتٍ عديدة بكتِ انتظارها للإقامةِ ومعاناتِها مع الوقتِ وتخوّفها من الحياة المجهولةِ المقبلة في هذا البلد، لتتفرّج بعدها على الشابّ اللطيف وهو يسترضي محبوبتهُ الباكيةَ بكلّ حنان، يلجها برقّةٍ ويقبّل رقبتها راجياً إياها أنْ تنسى حُزنها.

ألقتِ التحيةَ على الجار الذي يُنزّه كلبه في كُلّ الأوقات والذي يسكن بيتاً من طابقين وحده قريباً من سكنها. تعرّفتْ إليه مرّة حين كانت عائدةً من محلٍّ للعطور جرّبت فيه العطورَ الغالية وبخّت على عروق يُمناها روائح مختلفة، فاقتربَ الكلبُ منها وأخذ يشمُّها. من وقتها وذلك الكلبُ يألفها أكثر من كُلّ الذين تعرفوا إليها.

ولم يكن هذا مُضحِكاً البتّة.

عادةً، وفي كُلّ المشاوير، كانت جيهان تلفّ لها سندويشة لبنة مع أوراقِ نعنع والقليل من الزيت ثمّ تضعها لها في كيسٍ شفّاف. اللبنة الطيبة الطازجة من عند السمّان الشريف الذي اكتشفته جيهان في الحارة القريبة. أينما ذهبت راوية حملت في حقيبتها السندويشة من دون أنْ تأكلها أحياناً.

تتودّدُ إليها في الغياب. حضّرتها جيهان وهي حامل، وهي ترضع، وهي يقظةٌ بالكاد، وهي تُبربر مع الهواء. من غير الممكن أنْ تضيع الفتاة، وفي جُعبتها أثرٌ من أمّها.

أمّها الآن موجودةٌ على الهاتف فقط. شبحٌ يطاردها بالرّنات والزفرات اليائسة عبر السمّاعة. وأحياناً تشعر بأنّها، بكُلّها، أثرٌ أضاعتهُ جيهان.

وما علينا الآن من كُلّ هذا. لفّت اليوم بضع سجائرٍ وضعتها في عُلبةٍ حديديّةٍ تحسُّباً. المهم أنْ لا تضيع الفاتورة فيرفض البائع استرداد السوتيانات.

– راوية، أين تذهبين؟، ناداها صوتُ عِرفان من بعيد.

– آه هذا أنت!

– أتمشّى قليلاً في السوق، قالتْ ورفعت الأكياس أمام وجهه.

لحق بها وراوغَ كي يتمشّى مع أفكارِها. لا بأس في أنّه لم يطلب إذنها. كُلّها فترةٌ قصيرةٌ وتأخذ الإقامة ثم تجدُ سكناً وتعيشُ وحدها مثلها مثلُ البنات المُستقلّات ذوات الشخصيّة الناضجة مكتملة البناء. ووقتها عليه أنْ يضرب موعداً معها قبل شهرٍ من الزيارة.

– رأيتكِ من شُبّاك غرفتي فلبستُ ثيابي على عجلٍ ولحقتُ بك، قال ونظر نحو الأكياس.

أبعدتها راوية وحملتها باليد الأُخرى.

– ميّزتني رغم ثيابي السميكة هذه كلّها؟

ضحكت.

– سأقول لك بصراحة. أردتُ فرصةً كي نلتقي. لا أُخطئك ولو على بعد أميال.

مشيا فوق الجسرِ المفضي إلى مركز المدينة وساحتها. بعض الناس علّقوا أقفالاً حُفرت عليها الحروف الأولى من أسمائِهم، التَمَعَتْ

مع اقتراب راوية وعِرفان منها. أمسك عِرفان بأحدها وتفاجأ من قِدمهِ، إذ إنّ التاريخ كان مكتوباً عليه. أحدُ الأقفال الضخمة لم يكن بالإمكان حتّى تحريكه. كان النهر في الأسفل هادراً شديدَ الاندفاع يُذكّر بغرقٍ لا نجاة منه. ارتفع مستوى الماء حتّى صارتِ الضفافُ قاعاً. هذا ما يصنعهُ الذوبان، يرفدُ الأنهار، يُغذّيها.

آه إنّها تُعجبه..

بدا ذلك من نظرته نحوها حين أمسكَ بأحد الأقفال، من تهاديه المرحِ إلى جانبها على الجسر، وضحكهِ معها حتّى بانت أسنانه. ارتدى هذه المرة جاكيتاً سميكةً ولم تبدُ كتفاها ضيّقتين كما في كُلّ مرّة. بانَ شعره ناعماً مُنسّقاً وسوادُه شديد الزُّرقي.

إنّها تعجبه وستعبرها الأنـهارُ وتنساها الجسور وتتصدّأُ كل الأقفال بين يديها، إنْ هي لم تتمسّك بهذه الفرصة. عِرفان.

الحبُّ يخلفُ الحب. القلب يرثُ المشاعِر الجميلة من نفسه. الصعوبةُ تكمنُ في خلقها أولاً. بذرةُ حُبٍّ صغيرة تكتنفُ صدركِ يا راويـة. عليها أنْ تُنتش، تتبرعم، حتّى تبدأ مزرعةُ الحبّ بالتمدد وتصبح حقولاً شاسعةً لا يعودُ بالإمكان حصدُها. حتّى تُحبّي أحداً ما، عليكِ أنْ تدعيه يسقيكِ. ولو كان لُعابه كثيفاً، ولو كان صدرهُ ضيّقاً وعيناهُ صغيرتين. «معلش». دعي البذرة تكبر قليلاً. عِرفان الآن هو واحةُ القلب الظّمآن.

التقتهُ أول ما وصلتْ إلى السّكن بالصدفة، حيث أجبرتهما المساحةُ القليلة على أنْ يجتمعا على الطاولة ذاتها. من يومها وهما يجتمعان حسب حدسِ الأقدار. إنْ تواجدا معاً في مساحةِ المطعمِ ذاتِها، تشاركا الأكلَ قبالة بعضهما والقرفَ من رائحة البيض المقلي أو صلصة المعكرونة الحمراء.

حينَ لا يلتقيان تشعرُ بأنّ ذلك أفضل في أوقاتِ مزاجِها العصبيّ، وملوّعاً قاهِراً حين تكون مُبحرةً في محيطات الوحدة. وبعد محكمتها الثانية، سألها مِراراً، كلّما التقاها، إن وصلتها الإقامةُ أم لا، كما لو أنّ أسئلتهُ ودّتْ طردها من السّكن بأسرع ما يمكن. راودتها حينها شكوكٌ حول ما إذا كان مُعجباً بها أم مُعجباً بصحنها الذي يشبه بمحتوياتِه تماماً، صحنه.

جاء عِرفان مع عائلته. نزهةٌ عائليةٌ لإراحةِ الأعصاب، كان يقول لها ضاحكاً. ستّة أفرادٍ ركبوا البحر معاً فإنْ ماتوا، ماتوا جميعاً ولا يثكلُ أحدٌ أحداً. لكنها كانت فكرةً جيدة ونجوا. هؤلاء الذين تربوا في أسرٍ كثيرة العدد، لديهم بأسٌ وشِدّة، كأبناء القبائل.

صادفا في طريقهما، عند كُلِّ منعطف، مخلّفاتِ المفرقعات والألعاب الناريّة. رفع عِرفان يده من جيب معطفه وسند راوية من كتفها كي لا تدعس عليها وتتعثّر. لقد تمسّك الثلج بالظلال وبقي معانقاً الأعشاب القصيرة التي نبتت فيها، أما حيث أشرقت الشمسُ، فقد ذابَ بُبطءٍ كاشفاً ما تحته. الثلجُ بهيٌّ حين يصادق الأرض هكذا ويكسوها بعناقه الأبيض. ثلجٌ سلسٌ هانئٌ عرَف أنْ يحطَّ وكيف يذوب. هل سيتشبّه عِرفان بهذا الثلج اليوم؟

– صحيح. لم أسألكِ ذلك اليوم. أين قضيتِ رأس السنة؟

– رأسُ من؟ ماذا؟ قرأتُ مرّةً نكتةً تقول إنّ رأس السنة مقطوع! قالت وضحكا، ثم أردفت:

– تمشيتُ قليلاً مع شهيناز في الساحة، وهذا كُلّ شيء..

كانت المرّة الأولى التي يذرع فيها عِرفان المسافاتِ أمامها أو يمشي في طريقٍ ممتدٍّ من دون أنْ تقف في طريقه تماثيل صالة الطعام. بدا واثقاً. عيناهُ مدورّتا النظراتِ أيضاً. تفحّص كُلّ جسدها وقرّب رأسهُ من كتفها وحرص على أنْ ينظرَ في عينيها فضخّ فيها

الحياء. ابتسمت له وهي تتمنّى أنْ يَبدوَ لون أحمرِ الشفاه له جميلاً، أجملَ من شفتيها حتّى، وألّا ينفر من كونهما رقيقتين للغاية.

– بعض الأحيان نبدو أنّنا الوحيدون الذين نشعرُ بالبرد، قال عِرفان وأشار لها برأسه إلى امرأةٍ ارتدت تنورةً قصيرة وكلساتٍ شفافة وجاكيتاً كحلية قصيرة.

– بعض الأحيان أشعرُ بأنّني الوحيدة التي تُدخّن.

ابتسمت وأخرجتِ العُلبة من حقيبتها. رفعت سيجارةً وأشعلتها. ضيّفت عِرفان فأخذ واحدة. نفثَ الدخان ونظر إليها وقد احمرّ خدّاه بغير انتظامٍ من البرد.

– جميلةٌ قصّةُ شعركِ هذه.

عباراتُ الغزل ورطةٌ حقيقية، إذ إنّها لا تعلم تماماً كيف تردُّ عليها. أتقول جميلٌ أنفك الذي يسيل؟ أو جبينك المُتجعّد حتّى في وقتِ الراحة؟ ذقنكَ المُفرّغة من الشعر في أماكن عِدّة منها على شكلِ دوائر؟

قصّةٌ جميلةٌ لأنّها جاءت في وقتها تماماً. ربّما حجبتْ تلك الشعيراتُ النازلةُ حتّى حدودِ النظرة عِرفان عنها، فلم ترهُ كما يجب. لم تأنسْ لحضوره كما ينبغي لها كفتاةٍ مزروعةٍ في غُرفة. مزروعةٍ في قارب يهدج. مزروعةٍ في منفردةٍ حقيرةٍ (ربما).

قصّة عفويّة إلّا أنّها أماطت الغرّة عن وجهها كما لو أنّها كانت لثاماً.

رأت أنّ عِرفان يمكن أنْ يكون حبيباً. ليته يعزمها إلى حانةِ الخَلاص، التي تُحبّها.

تحدّثا وتمشّيا حتّى المساء، حتّى نفدتْ من المقاهي رائحةُ القهوة مع المعجنات والفطائر وسادت مكانها رائحة البيرة، ولمّ

العازفون الجوّالون أبواقهم وانصرفوا وأغلق النُساك والرُهبانُ أبواب الكنائسِ وبكى الأطفال في العربات من شدّة نُعاسهم. أغلَقَ أصحابُ المحالِّ دكاكينهم وتركوا بصيصاً من الضوء تحت أرجل المانيكانات لتظهر كما لو أنّها آخذةٌ بالتلاشي.

وحكت راويـة. رتّبت قصّتها في ذهنها كما يجب أنْ تُقال. تمهّلت وأخذت نفساً بين الجملة والأُخرى. في مقابلة المحكمة منذ فترةٍ، تلعثمت بشدّة وكرّرت العديد من المعلومات. ارتبكت وأربكتِ المُترجم الذي تفادى المشكلة وطالبها بأنْ تُجيب بنعم أو لا كي تُفهم قصّتها بوضوح. الآن حَدَّثت عِرفان عن نفسها وعرّت كُلّ شيء، إذ إنّ عِرفان طبيبٌ تخرّج حديثاً. لديه باعٌ طويل رُبّما في دراسةِ الأمراضِ المُستعصية. تلك التي خُلقَ الإنسان وهو يحملها في كبده، أو رئتيه، أو دمه. تغَذَّتْ منه، تطَفَّلَتْ عليه.

بدت على عِرفان قُدرةٌ ما على تحضيرِ ترياقاتٍ عجيبةٍ ومزجِ محاليلَ من خلاصاتِ الزهرِ والعطور «الداشرة» في الحقول وقطعِ الحرير وبقايا الشموعِ الذائبة ورمادِ السجائر وحبّات الخرز وأوتارِ الكمنجاتِ الحزينة ونشارةِ خشب القيثاراتِ المائلة بثقلها، قليلاً، على كتف راوية. وكُلَّما حكت أكثر نظرت إليه فإذا هو يُبلسمُ أوجاعها بإيماءةِ رأسه الحنونة.

وها قد أصبح لها من اسمها نصيب.

أما الكيس، فظلّ محفوظاً. تناست كُلّ الزوابع المُحتدمة فيه. أبقتها تُخضُّ وترتجفُ وتنفشُ دانتيلاتها كما ينفشُ الطاووس ذيله. أبقتها. سالتْ ألوانُها ثم عادَتْ وتَجَمّدَتْ على القماش وتكَثّفَتْ على الحشواتِ الإسفنجية.

في إحدى الحارات المرصوفةِ بالحجارة والتي يُمنع فيها مرور السّيارات، وقفا معاً قبالةَ بناءٍ رُكنت إلى جانبه درّاجاتٌ هوائيةٌ للكبار وأُخرى ملونة للأطفال. زُيِّنَتْ جميعُ النوافذ بالأضواء الفاتنة التي لم تنتظر تمامَ الظلمة حتّى تضيء.

على نافذة أحد البيوت في الطابق الأخير عُلّق بالونٌ ضخمٌ على هيئةِ رجلِ الميلاد بلباسه الأحمر ولحيته البيضاء، حاملاً على ظهره كيس هدايا. بدا كأنّه ودَّ دخول البيت وتوزيع الهدايا على أصحابه.

اقترب منها عِرفان وباعد غُرَّتها عن عينيها ثمَّ قبّلها من فمها. أولاً على أحمر الشفاه الخدّاعِ.. ثمّ باعد شفتيها المُطبقتين بشفته السّفلى. سلّمته الشفتين معاً فاختار العليا. مصّها بهدوءٍ من يتلمّسُ أعجوبةً ما ليتأكد من حقيقتها. وضع لسانه بين شفتها وأسنانها ثم دفع به نحو جوف فمها.

باطن شفتيه دافىء.

راويـة التي لم تعرف سوى تقبيل السجائر مرَّغَت شفتيها بشفتيه كأنّها ودَّتْ سحقَها تماماً. ليتها الآن تنكمشُ لتصبح بحجم زاويةِ فمه. وتبقى هُناكَ. تعيش على القُبل.

جاب لسان عِرفان فمها. أمسك رأسها بيده. فركَ شحمة أذنها بإبهامه. زفرتْ أسرع منه. وضعتْ يدها على كتفه الضيّق ثم عصرتِ العضلات في ساعده. كاد يعضّ شفتها السفلى بأسنانه.

بسطت كفّها على صدره. على فُسحةِ صدره كاملةً. تشحذُ هِباتِه كما علّمتها شهيناز.

بعدها نظر إليها ولم يتكلّم.

– أنتَ جديدٌ علي، قالت.

رطّبت شفتيها بلسانِها تدعوهُ إلى امتصاصِ رُضابِها مرّةً أخرى.

– أنا أشتهيكِ، قال.

ومرّر لسانه على شفتيها المُطبقتين، والمُبتسمتين أيضاً.

لطالما بكتْ راويـة. أنت من أجلِ أشياء كثيرة. دفعتها بعضُ الليالي لأنْ تُقلّب ذاكرتها المُغيِّبة وتوغل في أعماقِها بحثاً عن أيِّ بُكاء. أيّ جُرحٍ في الرّكبة. أيّة جديلةٍ فُكّت. أيّة لُعبةٍ مع أولاد الجيران لم تنته لمصلحتها. لكنّها الآن، وفيما شفتاها تتقلّبان وتُعصران بين شفتي هذا الشاب، عرفت أنّ كُل تلك الدموع، كانت فقط.. من أجل هذا..

سنعلّق القفل قريباً يا عرفان، نعم، على أمتن جسرٍ في هذا العالم.

***

هكذا، فإنّ القبلة كانت كدبّوس، فقعت معه هالةُ الآلام.

دعينا أيتها القُبلةُ نحتفي بـك. نُعلّقك أيقونةً شفّافةً على الشفتين. لن تنام راوية اليوم. ستصلُ الليل بالنهار والصبحَ بالعشيّةِ وتبقى جاثيـةً على ركبتيها فـي معبدِ الحِرمان تبتهلُ للقبلاتِ المُستحيلة.

اتفقت مع عرفان أنْ يعودا إلى السّكن بفارق توقيتٍ كي لا يلفتا الأنظار، لكنّ رطوبة قبلتها لا بُدّ ستظهر، سيرى الجميع هذا. ستحلم بأنّها مُدرّسةُ موسيقى، رقيقةُ الصوت، لطيفةُ المَبسم، تُحبّ طبيباً واثقاً حكيماً. لا هو رأى حارتها ولا هي عرفت ما قاساه في حياته القديمة. هكذا يكونانِ معاً جديدين، ويصنعانِ معاً حياةً تخلو من الذكريات والمزاريب وصخبِ الجيران وبُصاقِهم وأمواجِ الرّعب التي ركباها. لن تفكّر راوية بعدها بوجهةٍ لسكاكين مطبخ بيتهم ولا بأم عماد أو بالكنبةِ الخاليةِ التي تراها دوماً في منامِها. لا أجمل من أنْ يشعر المرءُ بأنّ حياته أصبحت ملكه.

دخلت الغُرفةَ فوجدت شهيناز تحمل منشفتها وعلبَ الشامبو والليفة.

– إلى الحمام يا قلب قلبي، قالت وهَمَّت بالخروج.

– قولي لي كيف كانت مقابلةُ المحكمة؟، سألت راوية بلهجةٍ مرحة.

– ظفرُ شهيناز الوسخ الآن «بيسواهم».

رفعتْ قدمها في وجه راوية.

– فكيف إنْ كان مغسولاً؟، قالت راوية وضحكتا حتى كادت المنشفة تسقط من يد شهيناز.

لم تنشر شهيناز الفوضى في الغُرفة لأنّها لا تستخدم فيها سوى أشياء قليلة. لا تتفاعلُ معها. خمَّنَتْ راوية أنّها تعَقَّدَتْ من الانتظار المقيت مِثلها وملَت كُل أيامه. وراويـة هي التي تُضبضب وتُرتّب وتضعُ الثياب في الغسيل ثم تنشرها. تكنس الأرضيّة وتمسحُ الغبار كي تُسلي نفسها من دون أنْ تُطالب شهيناز بشيء. الآن بإمكانها أنْ تُعزّل السّكن بأكمله وهي تُغنّي طربة، لشدة ما جعلتها جذلى سعيدة.

منذ قليلٍ اتصلتْ بها جيهان ولـم تـردّ. وضعت إبريقاً على السخّانةِ الكهربائية، لملمت بعض الأغراض المُتناثرة هُنَا وهُناك ثم عاودت الاتصال بها وهي تملأُ الكأسَ بالمتّة.

– إيه جيهان؟

– راوية وينك؟ لا تزعلي والله قريباً سأشتري بطاريّة وأدع أحداً يركّبها لي. الله يسامحك. ألا يكفي أنّني وحدي هنا أركض من مكانٍ إلى مكان؟

– معلش ما زعلت. تعلمين أنّي أشتاقك يا ماما. ألا تفكّرين بي؟

– إيه يا حبيبة أمك، قالت، ثم صرخت بالولدين اللذين صنعا حلبةً من جماجا ...

– لن تعرفي ما حصل لأمك يا راوية. ترددت في إخبارك لكن يجب أنْ تعرفي حتى تحسبي حسابك.

– خير يا جيهان؟

أسندت السماعة بين كتفها وأذنها وصبّت الماء فوق المتّة.

– ذهبتُ البارحة مع أخويكِ إلى المكتب وانتظرتُ دوري. زحمة يا راوية. لن تصدّقي عدد الناس الذين هم مثلنا. كلّ واحدٍ عنده مصيبة شكل. حتى أنّهم تقاتلوا على الدور وما عاد أحدٌ يصبر أبداً وأخواك لم يتوقفا عن الرّكض. راح الدور عليّ مرتين وأنا أتبعُهُما. المكتب ضيّق جداً حتى أنّ الناس انتظروا واقفين. أين تروحُ جيهان بنفسها من الزحمة؟ هل يقتنع أخواكِ بأن ينتظرا بكلّ أدب؟ لا وألفُ لا.

سعلت جيهان فانزعجت راوية وأبعدت السماعة قليلاً عن أذنها. ثم أردفت:

– والله يا راوية وغلاوة أبوكِ أنّني أمسكتُ الشنطة بيدي بكل قوّة ولم أخرج من المكتب. لكنّ أخويك لا يعقلان وخفتُ أنْ أصرخَ فيهما فيزعق الأوّل بلا توقف ويبوّل الثاني في ثيابه. لم يتركا رجلاً من دون أنْ يشدّا جاكيته. لم يتركا امرأةً لم يدعسا على حذائها. وفي الخارج صقيعٌ لا يُحتمل. قالوا إنّ موجةً من البرد ستأتي. والله يا راوية لم أستطع تأمين مازوت. قلنا لهم ندفع لا يهم. ابنتي تبعث لي كل شهر باليورو، قالوا «مو ليكون في مازوت بالأول؟».

– جيهان، سأنتهي من الإبريق ولمّا تقولي لي. هل وعدوكِ بِشَيْءٍ جديد؟ سترين أبي؟

– خطفولي الشنطة يا راوية. فيها مئة وخمسون ألفاً، دفعة على الحساب لمقابلة أبيكِ. جاءَ ولدٌ وسحبها مثل البرقِ وهرب ولم يوقفه أحد. متُّ من كثرة ما زحتُ وبكيت على باب المكتب، والله لم يردّوا

عليّ ولم يُدخلوني. لا تسأليني كيف رجعت إلى البيت. منيح معي فراطة. وأخوتك..

– ماذا قلتِ؟

صرخت راوية بأعلى صوتِها ووضعت الكأس بعصبيّة على الطاولة ثم ركلت الأرض بقدمها.

– إيه لا تغضبي. ما الذي بإمكاني أنْ أفعله الآن؟ قال الجيران أن لا أذهب إلى الشرطة أبداً لأنّ الأمور ملخبطةٌ الآنَ، وحتى إنْ وجدوا الشنطة سيأخذونها هم.

– جيهان. أنا سأجنّ أيتها الأم. سأفقد ما تبقى لي من عقل. لماذا لم تنتبهي؟ وكيف لي أنْ أبعثَ لك الآن بالنقود وأنا «عايفة حالي»؟ خلص اعقلي ولا تذهبي بعد الآن إلى هُناك. أقولُ لكِ مااات. مات وانتهى. هو لا يحتملُ صفعةً. جسمهُ لا يلقى رفسةً يا جيهان. أنتِ بذاتكِ قُلتِ لي إنّكِ كُدتِ تهرسين ساقهُ مرَّةً وأنتِ نائمة.

– سأدَّخِرُ نقوداً وابعثي أنتِ لي قدرتَكِ. اعتبريها صدقةً من أجلِ الأموات. ماذا سينقصُ عليكِ قولي؟ أخذتُ موعداً بعد أسبوع وقال السكرتير إنّهُ بإمكاني أنْ أدفعَ نصفَ المبلغ الآن. حالما أرى أبيكِ ساقولُ لَهُ عنكِ كُلّ شيء يا راوية.

– لن تقتنعي يعني إلَّا حتّى نفتح مضافةَ عزاءٍ من أجله؟ آه يا جيهان. مالي يُسرقُ من كُلِّ الجهات.

دخلت شهيناز وقد لفّت شعرَها بمنشفة وارتدت بيجامتها. استمرّت جيهان بتبرير فعلتها. قاطعتها راوية قائلةً إنّها مشغولة الآن وإنّها ستتصل بها في ما بعد ثم أغلقتِ السمّاعة.

– على من تصرخ أمك؟، سألتها شهيناز ثم تناولت مِشطاً من على عتبة الشُّباك وفكتِ المنشفة وأخذت تُسرّح شعرها.

– بطبيعة الحال يصلُ همسها العاديّ صراخاً، وتحيّاتُها إلحاحاً مُزعِجاً. هذا مألوف.

أجابتها ثم رفعت كأس المتة تسألُها إنْ كانت تودُّ واحدةً لها. هزّت شهيناز رأسها بالنفي.

– وكلّ مرةٍ أقول اكتفيت، ثم تعود وتتصل فأندم.

نفضت شهيناز شعرَها الرّطب مرّاتٍ عدّة ثم قالت:

– العديدُ من طُلّابي.. – وضعت ساقها اليُمنى فوق اليُسرى واستمرت بنفض شعرها – كانوا يأتون إليّ طالبين مشورتي في خلافاتِهم مع أهاليهم. بصراحة – قالت وهي تحاول أنْ تنظر إلى نهاياتِ الشعر في عُقدةٍ لفّتها بإصبعيها من دون أنْ تُفلح – لكلٍّ حياته يا قلبي، لكلٍّ تفكيره – وقفتْ وأحضرت محرمةً من العلبةِ الموضوعة على عتبة النافذة وجففتْ صيوان أذنها بها – يمكن للمرءِ أنْ يُساير قليلاً ولكن ليس إلى حدٍّ يفوقُ الاحتمال – رمتِ المحرمة في السلّة الصغيرة الموضوعة في زاوية الغُرفة – ولهذا أنصحكِ ألّا تهتمّي كثيراً. «طنّشي» – ولوّحت يدها في الهواء ومطّت الكلمة وهي تلفظها لتؤكدها أكثر.

– هذا يُخرّب عليّ حياتي، قالت راوية وأشارت إلى تلفونها.

– نتحدّث غداً. أنا سأنام، قالت شهيناز واستلقت فوراً في فِراشها ثم نفضت الغطاء بقدميها حتّى فُرد قليلاً وتغطّت به.

– لكنّ شعرك مُبلل!

هزّت شهيناز مؤخرتها تحت الغطاء وقالت بصوتٍ عميقٍ بالكاد يُسمع:

– النومُ يعني النوم.

ثمّ وضعت عُصابة النوم على عينيها.

ركضت راوية نحوها وجلستْ على الأرض إلى جانب فِراشها ثمّ خلعت مشايتها.

– اسهري معي، قالت بصوتٍ متهدّج.

ظلّت شهيناز ساكنة.

«أحياناً أتمنى أنْ أُسمع»، همست راويـة من دون أنْ تلقى جواباً.. أسندت ظهرها إلى السرير وضمّت ركبتيها بيديها. وضعت رأسها على رُكبتها ونظرت نحو الأرض.

«لا عليكِ، لا شيءَ مهمٌّ البتّة».

تنهّدت.

«نشّالٌ واحد قد يسرق كُلّ الأشياء المهمّة ويعدو بها بعيداً»، قالت بصوتٍ خفيض ودفنت رأسها بين قدميها لثوانٍ ثم رفعته. أمالت رقبتها يميناً وشمالاً ثم تمتمت: «قبلةٌ أولى تمرُّ من دون احتفال».

تفقّدت رسمةَ ندفة الثلج على أظافرها ثم وضعت إصبعها على شفتيها متلمّسةً إياها. استدارت نحو شهيناز ثم قرّبت وجهها منها فإذا تلك نائمةٌ بعمق. تصنّعت أنّها تُحادثها وقالت على مهل: «معكِ الحقّ. كُلّ الحقّ. لكلٍّ حياته.. لكن أنا لم أكن جاحدةً لهذه الدرجة. ما الذي حدث لي؟ ما الذي حدث؟».

حكّت رأسها. عادت وأدارت ظهرها لشهيناز لكن أمالت رقبتها نحوها قليلاً.

«لم يحدث شيءٌ من الأساس»، قالت ثم نظرت حولها بازدراء.

«إنّه لطيف، نعم. لن أكذب وأقول إنّني أُحبّه بشكلٍ رهيب. إلّا أنّني طبعاً أحبّه. حزنتُ على رحيله هكذا. لم أكن مُستعدّةً أبداً وإنّني – رُبّما – إلى الآن محتارةٌ في أمري

تنحنحت شهيناز قليلاً لكنّها لم تتقلّب نحوها. نظرت إليها راوية إذ أخرجت يدها اليسرى من تحت الغطاء ودفعت رأسها أكثر نحو الوسادة. أشاحت بنظرها عنها وأخذت تنقّل بصرها بين الخزانة والطاولة ومساحةِ الغُرفة كاملةً.

«لكن الآباء ليسوا أبرياء تماماً»، قالت وأغمضت عينيها لبرهة. فردت ساقيها على الأرض وصارت تُدلّكُهما.

«عِرفان سيحتفل بالقُبلة، هذا مؤكد».

وصلت بالتدليك حتّى مفصل قدمها. حاولت إمساك الأصابعِ من دون فائدة. دلّكت عضلاتِ ساقِها.

«يا شهيناز أنتِ تعلمين.. لكنّ القُبل أجملُ ممّا كُنتُ أتصوّر».

لوت شفتيها كأنّها تُقبّل الهواء ثم ابتسمت. «يا تُرى، يا تُرى.. كيف شعر بلساني؟» وضعت إصبعيها على لسانها وتلمّسته. «إنّه أملس..»، قالت. «الحقّ أقولُ لكِ، إنّه طريّ.. لا يكتشفه سوى من تذوّقه، تخيّلي أنْ نمشي ونحن نمدُّ ألسنتنا..». مدّت لسانها وحرّكته في كُلّ الجهات. «لكنّه ليس مُفيداً.. في بعض الأوقات».

قامت فجأةً وصعدت السّلّم. حملت حاسوبها الذي كان فوق سريرها ونزلت به. وضعته على الأرض ثمّ شرّعته. وحين أضاءت الشاشة قامت وأطفأت ضوء الغُرفة ثم عادت وجلست مُتربّعةً قبالته.

«اليوم نتبادل الأدوار. أنا أسهرُ ليلكِ وأنتِ تنامين»، قالت بصوتٍ مسموع ثم كبستِ الأزرار على لوحةِ المفاتيح.

«وحين سأتركُ هذا السّكن، ستتركينه أيضاً».

أمالتِ الشاشة كي لا تُضيء نحو وجه شهيناز.

«مممم.. إنّنا نلتقي الآن أكثر من أيّ وقت».

قلّبَتْ صفحتها على الفيسبوك من دون أنْ تقرأ فيها شيئاً. صورٌ وأخبارٌ تتابعت كأنّها صفحاتٌ بيضاء.

«أتتفقين معي؟ لم يكن يتوجّب علينا – أنا وأنتِ – أنْ نأتي إلى بلادِ غيرنا».

استمرّت بالتقليب.

«لا، لا أظن. إنّها تبدو مُلائِمةً لنا». وحرّكت إصبعها ذا الذرّة الثلجية وهي تكبس بواسطته.

«وجصلت القُبلة.. أساساً هي هاجرت معي من هُناك. لتحصل هُنا. هذا غريبٌ يا شهيناز».

شغّلت أُغنية وأخفضتِ الصوت حتّى أصبح بالكاد يُسمع. حرّكت ساعديها في الهواء كما لو أنّها تقود فرقةً. أغمضت عينيها وغنّت لكلّ ما لم تعد تراه.

تعال نشدُ المُنى والغرامَ
كفانا البعدُ هيام..
تعال قبل انقضاء الشباب
وموت الحبّ وانقطاع الرجاء

الفصل الثالث

مشت شهيناز في غمامةِ الضبابِ.. حجبتِ الغيومُ الوطئةُ مساحةَ الرؤيا. قصُرَ الشارعُ وضاق ولم تتبدَّ له نهاية. أعمدةُ الإنارة أشباحٌ بعينٍ واحدة. كان الوقتُ ظُهراً من دون أنْ تشي السماء بذلك. عقارب الساعات، وكثافةُ الغيم الرطب، كُلٌّ صنع زمناً خاصّاً به.

شعرت بأنّ عبورَ الضباب وقتٌ مُستقطعٌ من الحياة. مسيرٌ في حُلمٍ غامضٍ. بين الخطوِ المتمهّل والعومِ اللذيذ. سعدت شهيناز بطقسٍ كهذا بلا ركيزة يُشبه حلمَ يقظة أو وهماً يمكن التخلص منه. تحقّقت فيه إحدى أمنياتها بأنْ تكون كُلّ حياتِها في هذه البلاد خيالاً بخيال. وأنّ استفاقةً ما ستحصلُ بعد كُلّ هذا وتُعيدُها إلى ما كانت عليه.

وها هي الكنيسة الأضخم في المدينة – بحجارتها المائلة إلى الحمرةِ القرميديّة وبابها الخشبي الضخم الذي غالباً ما يُفتح قليلاً ولا يُشرّع تماماً – مسّها الضباب وابتلع جُزءاً من سقفها. عمودُ الأجراسِ العالي والمنتصبُ إلى يمينِ الباب قُصّ تماماً. كان مليئاً بالأجراس النحاسيّة المختلفة المقاسات لكنها لم تعد بأكملها ظاهرة. رنّتِ الأجراسُ مُعطيةً لحناً ما، إلّا أنّ صوتَ بعضها كان عميقاً خفيفاً

وحرَكتها متثاقِلةٌ بوضوح. رفعت شهيناز رأسها نحوها. لقد كبّل الضبابُ رنين الصلوات.

تجمهرَ الأولادُ قافزينَ على ألعابِ على شكلِ جـوادٍ دُقَّ إلى الأرض بمسامير وساقاهُ نوابضُ ثخينةٌ، أو جلسوا على مقاعدَ في صدرِ تنينٍ خشبيٍّ ضخم صار يروحُ ويجيءُ بحركةٍ سريعة. من حولهم نُظِّفت مُخلَّفاتُ الاحتفالِ بمهارةٍ وكَأَنَّ الكنّاسين كانوا مِئاتٍ. لم تنضحْ علبُ القمامةِ الحديديّةِ المتوزّعةِ في السوقِ بما فيها. لقد كنسوا حتى رائحةَ بارودِ الألعابِ النارية التي كان من المفترض أنْ تبقى حبيسةً في هذا الفضاء الكامدِ الساكنِ لأيامٍ ويشمّها المرء ما إنْ تطأ قدماه الجسرَ في أوّلِ السوق.

شاهدت شهيناز رجلاً بقبّعةٍ من فرو كأنّه قائدُ كتيبةٍ يخدمُ في جبال الثلج، وسيّدةً هرمةً استندت إلى عُكّازٍ على شكلِ أربعةِ مساندَ بأربعةِ عجلاتٍ وجيب صغير في المسافات بينها لوضع الحاجيات، ومع ذلك فقد بدت مِشيتُها كبطريقٍ يتبختر. أحياناً لا تصلُ شهيناز إلى وجهتها إلّا وقـد مـرّت على ذهنها جميعُ أشكـالِ الحيواناتِ المُضحكةِ وتصرّفاتُها الغبيةُ التي لا تحمل أيّ معنى.

جسمها المغسول بالضباب أكثر فِتْنَة. لا يتبيّنه إلّا الخبيرون في أمورِ الجنسِ الشهيّ. لطالما تسلّطت على جسمها سُحب الدخان التي كانت تُبعثُ من أجهزةٍ مُثبّتةٍ على أرضِ المنصّة الخشبية، في المقصف. كُلّ الحركات، الإيمـاءاتِ، والشلحِ البطيء، كانت تقوم بها وهي مغموسةٌ بتلكَ السُحب البيضاء ليبدأ التهليلُ والهُتاف لها وتنتفض عيون الزبائن وأيديهم كأنّها ستنفصلُ عن أجسادهم، لتصلها. ضخٌّ نفثٌ ومن ثمّ تلويح.

ستجدُ دوماً شيئاً يُشبِهُها ويُعيدُ إليها ذكرى الأيّام الجميلة.

لم تكن تتوقّع أنّ لديها هذا المخزون المروّع من الذكريات. ولم تتعرّف حقاً إلى قيمة البهجة التي عاشتها أو إلى مكانتها الرفيعة إلّا حين سافرت إلى هُنا. هي متأكّدةٌ من أنّ الجميع افتقدها. سألوا عنها في المخافر والمشافي والمقابر. حتّى الفتياتُ اللواتي نلن نصيبهنّ منها بكينَ عليها فوق مغاسل الحمّامات ذاتِ الرائحةِ الزنخةِ وحاولن عبثاً فتحَ خزانتها الموضوعةِ في الكواليس والمملوءةِ بثيابِها الاستعراضيّة الثمينة والمُتلألئة، كي يتمكنّ من تقليدِها واستحضارِ حركاتِها المُميّزة. شهيناز متيقّنةٌ من أنّ عازفي الإيقاعِ والأورغن الذين ترصّدت أنغامهم تمايلَ خصرها كي تشتعل و«تولّع» الصالة، ما عادوا يعزفونَ بالحماسة ذاتها وآلمتهم أصابعهم لأنّهم من بعدها دقّوا الإيقاعاتِ بلا شهيّة، بلا إلهام.

حتّى أضواء الصالةِ المُبهرة في سقفِ المنصّة ستتعطّلُ مرّاتٍ عدة في غيابها من كثرة ما ستدورُ وتدور بحثاً عنها. الدخان الذي حاباها، سيتشرّد، يتلاشى في الصالةِ بين الكراسي ليصلَ حتّى البار، من دون أنْ يجد جسماً ساخناً مُغوياً كجسمها، يتجمّعُ حوله.

من ذا لديه مِنصّةٌ شرقيّةٌ هُنَا تستوعب مواهب شهيناز؟

بعدَ المُحاكمة يجبُ أنْ تشعرَ، ولو قليلاً، بانتماءٍ ما إلى هذا المكان. قريباً، وما إنْ تستلم الإقامة، ستصبح قادرةً على استرجاع هيبتها المفقودة.

شعرتْ بأنّ الأمور أصبحت أكثر جدّية. لم يعد هُناك مُزاحٌ. توقيعها المُزخرف قد ذيّلَ صفحاتِ اعترافها جميعها وقابلتْ قاضياً عابساً لا مجال للمراوغة أمامه. عليها أنْ تُفكّر بتأنٍ وتختار، إمّا أنْ تُخطّط مع فهد بشكلٍ دقيقٍ وتبدأ معه شُغلاً يدرُّ مالاً وفيراً، وإمّا تترك نفسها هكذا رهينة الصُّدفِ فيتلقّفها مكتب العمل ويعينها على

إيجاد مهنةٍ ما، من ثمّ تعتمد على نفسها وتبدأ أعمالها الخاصة. هي تعرف تماماً ما الذي ستشتغله. لكن السؤال هو، هل تضع يدها بيد فهد أم تنفصل عنه؟

أصبحَ وجودُه يُنهِكُها، يُسقِطها في الماضي الجميل الملوّن كي تتحسّر وتكتئب ولا تعود لديها الهمّة كي تبدأ طريقها الآخر. كما أنّه أصبح يُحبطها ويُنقص من قيمتها ويدعوها إلى مضاجعاتٍ رخيصةٍ لا ترقى إلى مستواها.

ما زال لديها الوقتُ للتفكير. ولو أنّ هذا السّكن يحترمُ نفسهُ بمن فيه لقابلتْ بين ممرّاتِه أحداً غير فهد، ولربّما امتلكَ هذا الشخصُ الجديدُ ميزاتٍ أخرى واحتضنَ مواهبها باحترافيّةٍ أكثر وتبنّى شطارتها كي يغتنيا معاً ويصل صيتها إلى قُتيبة حتى.. لكنّها فقدتِ الأمل تماماً بأولئك أصحاب المشاويرِ العائليةِ والجلساتِ في وسطِ الطبيعة، والمُنشغلينَ بالأراجيلِ والسوالفِ عن امرأةٍ كنزٍ كشهيناز. يا للرجالِ الخاملينَ البليدينَ كالضفادع.

لم تنتبه لفهد إلّا حين حطَّ إلى جانبها وقرّب فمه من أذنها هامساً: «نوريّتي أين أنت..» لم تطُلِ القطيعةُ بينهما سوى يومين اتصلَ فيها بعدهما قائلاً إنّه سيودّعها قبل رجوعه إلى مدينته وعمله، إذ إنّه لم يعد بإمكانه أنْ يُطيلَ إجازته أكثر من هذا.

إجازته.. ضحكتْ كثيراً حين قال لها هذه الكلمة. من بائعِ بوشارٍ مالحٍ في سينما السفراء، إلى بائع بوشارٍ حلوٍ في سينما ماكس.

لم ترتدِ اليوم قُبّعةً ولا شالاً بل أغلقتْ أزرارَ الجاكيت حتّى رقبتها.

– ستصحبني نوريتي إلى مواعيدها إذاً، قال فهد وبدا الفؤور في منتصفِ ذقنه مسوداً تحيط به قشورُ بشرةٍ بيضاءَ مُقززة.

– لا يذهب ذهنك بعيداً. ستأتي معي وستدفع.

– أدفع؟ ظننت أنّه يُدفع لكِ. آه منذ متى وستّ الحسن عنيدةٌ إلى هذه الدرجة؟

– خذني إلى هذا العنوان.

أعطتهُ جهازها فنظر إليه وقال:

– ما هذا المكان؟

– جهّز بطاقتك. أنت ستدفع لي هذه المرّة. أستحقّ منك مرّةً أنْ تردَّ لي الجميل.

– معك نقود تكفي وتزيد، قال محتدّاً.

– معي الكثير ولكنّكَ الآن ستدفع. ستنفّذ ما أقول أم أنّك ستعترضُ قبلاً؟ هذا لا يليق ببائع البوشار الشهيّ الذي كثيراً ما فرقع وتطاير في الأجواء، قالت وأبعدتْ شعرها عن نصفِ وجهها بيدها.

ذلك أنّه عليه أنْ يدفع ثمناً ما، لأيِّ ذنبٍ ما كاد أنْ يقترفه، أو فكّر في أنْ يقترفه، أو حتّى اقترفه في حقّها من دون أنْ يكون لذلك أيُّ عواقب. كُلّ مرةٍ، بطريقةٍ ما، سيدفع.

– تفضّلي، الطريقُ من هُنَا، قال.

ليس لفهد أيُّ دورٍ في ما حدث لها، إلّا أنّ رنّةَ مكالمتهِ تلك الليلةَ ما زالت تُضنيها، حين اتصل بها وهو يكاد يختنقُ من التوتّر. لهثَ لثوانٍ ثم قال: «لقد هاجموا سيّارة قتيبة يا شهيناز. أطلقوا النار عليه وهو في طريقهِ إلى الضيعة ليعودَ أمّه. ماتَ الرضيع يا نورية. في حُضن أمّه. بلا اسمٍ. مات الرضيع..»

***

توقفا أمام باب الصالون وتأمّلا الواجهةَ الزجاجية. هناكَ ثلاثة صفوفٍ من الصور بأُطرٍ سوداء مُربّعة معلّقةٌ بسلاسلَ معدنيةٍ رفيعةٍ. في كُلّ صفٍّ ثلاث صورٍ متوازية.

ذراعٌ موشومةٌ بزخارف لا تعلم شهيناز معناها، امتدّت من الكوع حتّى الكتف وغطّت مساحة السّاعد كُلّها. صدرٌ بسربِ طيورٍ متباعدةٍ عن بعضها وصلتْ حتّى جذر الرّقبة. الجزء الخارجيُّ من فخذِ شابٍ مُشعّر بانتْ عضلاته مشدودةً، وُشِمَتْ عليه ساعةٌ رمليةٌ تدلّت منها خيوطٌ وبدتْ حبّاتُ الرمل دقيقةً ظاهرة. وعلى بقية الصورِ وشومٌ لا يتبيّن المرء أعضاءها. أشكالٌ غريبة أشارتْ إلى حدثٍ ما في حياةِ أصحابِها. ورُبّما لا.. ربما هي مجرّدُ مُشاغبةٍ فوق الجسم.

شرّع لها فهد الباب لتدخلَ قبله في لباقةٍ جديدةٍ عليه. لقد بدأ صاحبُ البنطالِ القماشي الطويل المُبقّع منذ فترة بتعلُّمِ أصولِ التعاملِ كرجالِ الأعمال. المشكلةُ ظلّت في تلك الحدبة التي أوحتْ دوماً بأنّ حِذاءً ما يهرسُ رقبته.

كان المكان مزدحماً. تقدّما نحو مكتبِ الاستقبال وحاول فهد أنْ يشرح للموظفة ببعض المفرداتِ التي يعرفها أنّ شهيناز لديها موعدٌ بعد عشر دقائق من الآن. هزّت الفتاةُ التي كانت ترتدي ثياباً سوداء وتضع الكثير من المكياج وأحمر شفاهٍ فاقعاً بشدّة، رأسها مُرحِّبة. ناولتْ شهيناز أوراقاً كي توقّعها.

– أوقتُ هذا الآن؟، همس فهد وهما يجلسان على مقاعدِ الانتظار.

– كُلُّ الأوقات لشهيناز.. هي من تقرر.

– على هذه الحال جعلتني تابِعك.

– يا عيني عليك وماذا في هذا؟ عليك أنْ تسعد، إذ إنّني أختارك لكلّ المهمّات.

– وإنْ رفضتُ ومشيتُ الآن؟

– آه، فهد النذل لا يفعل ذلك. ترجم لي الأوراق.

– ماذا؟ لا أفهم شيئاً من هذا.

– لا يهمّ.

وقّعتِ الأوراق بتأنٍّ كي يبدو التوقيع في جميعها واحداً.

– اسمعيني هذا لا..

– آه يا فهد ما أوسخك.. رائحة جِرذان هذه.. ابتعد. أين أنتِ أيتها الأيـامُ الخالية حين لم يكن فهد يتجرّأ على أنْ يقرّب أنفاسهُ المسمومةَ من شهيناز، قالت وصنعت بأصابعها إشارة وعيدٍ وتهديد.

ابتعد فهد عنها قليلاً ونظرَ حوله لئلا يكون أحدٌ من الموجودين قد فهم شيئاً.

– لديّ شعورٌ بأنّكِ تنوين على شيء.

– آه أضحكتني. هو مجرّدُ وشمٍ بسيط أُدلـل نفسي بـه. ثمّ لماذا أنت متوجّس إلى هذا الحد؟ فلتان وفلتٌ منذ زمن ما الذي قد يُخيفك من أفعالي بعد هذا؟

– قلتُ لك تعملينَ في الدكّان العربي، إذ إنّ صاحِبه صديقي. تُرتّبين علبَ الكونسروة وتضعينَ اللحمَ المُجَمّدَ في الثلّاجات و..

– علبُ ماذا؟، قالتْ شهيناز وقرّبت أذنها قليلاً منه.

– كونسروة. مُعلّبات يعني..

– أي؟

– بعدها غمزة من هُنَا حركة شهينازية خطيرة من هُنَاك ويمشي الحال.

غمز وارتفعت فتحة أنفه مع حركات وجهه فصنعت شهيناز نظرة اشمئزاز ثم قالت:

– حلّ عنّي الآن. دعني أتمّ الوشم وبعدها نرى. ما أثقل دمك. ما أميعك.أنا أكرهك. قالت ودعستْ على حذائِه فتأوّه مُتصنّعاً ألماً وغُنجاً.

صمتا لبرهةٍ ثم قال فهد:

– قال دور قال. والله لو تأخروا أكثر سأقومُ وألخبط الدنيا. أولاد القحبة.

– أوف أسكتْ وأقعد. منذ قليل تصنّعتَ أنّكَ مثقفٌ يا ما شاء الله. دعِ الأمر يدمْ ولو لدقائق أم أنّك لا تستطيع؟

– كم عليّ أنْ أدفع؟

– بين الثلاثمئة والأربعمئة يورو، قالت شهيناز واضعةً قدمها اليمنى فوق اليسرى ثم أخذت تهزّها.

– نعم نعم؟ من أين لي يا نوريّة كُل هذا؟

مدّت شهيناز يدها محاولةً سحبَ محفظةِ نقودهِ من جيبِ بنطالهِ الخلفيّ قائلةً:

– وهذا ماذا آه؟ أين بطاقتك؟ كُلْ خراءً وادفع.

عدّل فهد جلسته ثم استند بكوعيه إلى فخذيه وقال بصوتٍ أكثر انخفاضاً:

– من أين جاءتني هذه البلوة.

الآن دورُ شهيناز. دلّتها الموظفة إلى الغُرفة المخصصة لها. دخلتْ وتبعها فهد.

***

مُعتادةٌ على رائحة الجلد الصناعيّ الذي صُنع منه في وسط الغُرفة سرير قُسّم إلى ثلاثةِ قطعٍ مسّت بعضها بعضاً وبدا أنّه بالإمكان زيادةُ طوله أو تقصيره. على الحائط رفوفٌ خشبيةٌ مُستطيلةٌ عليها تماثيلُ صغيرة. جمجمةٌ سوداء وسفينةٌ بأشرعةٍ مشدودة وبيتٌ مهجور ثُقبت جدرانه. وأشكالٌ أخرى متداخلةٌ مع بعضها لا يتبينها المرء إنْ لم يُمسك التمثال ويقلّبه في جميع الاتجاهات، حوى أحدها كُتباً ضخمة. أخفضُها كانت عليه علبٌ سوداءُ مُغلقة بأقفالٍ فِضيّة.

– يا للجنون، يا للجنون، قال فهد وجلس على كُرسيٍّ إضافي.

حيَّتها فتاةٌ مصبوغٌ شعرُها بلونٍ سماويٍّ فاتح. أرتها شهيناز صورةَ الوشمِ الذي تريد رسمه وطبعته لها راوية منذ أيامٍ على ورقة. تفاهمتا على الأبعادِ بالإشارة وساعدَ فهد قليلاً في قول بعض الأرقام. خلعتْ كنزتها وتمدّدت على بطنها.

رسمتِ الفتاةُ على الوجه الخارجي من كتفها الشكلَ التقريبيّ ثمّ أحضرتِ المرايا لتريها إيّاه.

– قيّمهُ أنتَ يا فهد، لا أريد أنْ أراه، قالت من دون أنْ تنظر في وجهه. إذ إنّه ما عرف من الجنونِ شيئاً أبداً..

ما رأى قتيبة كيف دخل إلى الشُّقَّة بعد الحادثِ بثلاثةِ أيامٍ. لم يسمعْ أزيزَ البابِ حين استشعر خشبُهُ رَهبَةَ اليدِ التي حرّكته. لم يرَ كيف كان هدوءُ قتيبة كصمتِ الأحراشِ في الليل ولم يقع في مدى نظرتهِ الغريبة تلك، النظرةِ الثابتةِ التي تكادُ تنهشُ.

انتفضتْ فجأةً حين أطلقَ جهازُ الوشمِ أزيزاً. شعرتْ بالإبرةِ وهي تخزُّ المكان. عضّت شفتيها وأغمضتْ عينيها، كي تتحمّل. ما من شَيْءٍ ذكَّرها بقتيبة كصوتِ الأزيزِ الحادِّ هذا.

يومها ركضتْ نحوه. عانقته. شعرتْ بأنّ الصدمةَ خدّرته، غيّرته. وضعتْ رأسها على كتفه ثم قبّلتْ رقبته بقبلٍ سريعةٍ مُتلاحقة كأنّها تنقرُ حزنه. تبتلعه وتغصُّ به. كانت رقبةً ثخينةً لم يهتجِ النبضُ فيها. رائحةُ حريقٍ فاحتْ من بذلته.

– كم أنا آسفةٌ على ما حصل، قالت ومَسَحَتْ شعره بيدها.

وضعَ يديه فجأةً تحت ردفيها وحملها ثم عبر بها ممرّ البيتِ نحو غُرفة النوم. رماها إلى السرير بقوّة.

«لا تتحرّكي»، قال.

«لا تتحرّكي يا شهيناز، تقول لكِ الآنسة»، قال فهد مُترجماً لها ما قالته صانعةُ الوشوم.

«حاضر حاضر»، قالت. كان بإمكانها أنْ تشعرَ بعمقِ الإبرة وهي تنغرز.

وحين غابَ قليلاً ثمّ عاد وفي يده شاحنُ الكهرباء الذي أطلقَ نوراً خافتاً، وباليد الأخرى حقيبتها السوداء، لم تتوجّس. كُلّ ما فعلهُ كان من طقوسهما معاً. وضع الشاحن في زاوية الغُرفة. حمل الحقيبة نحو رفِّ خزانةٍ عتيقةٍ ثم فتحها. بقيتْ جالسةً على السرير. راقَبَتهُ. هكذا يجلسُ الأوادم. قال وطرطَقَ بمحتويات الحقيبة.

استدار نحوها ثمّ اقترب منها وجلس على حافّةِ السرير. تنهّد ثم نظر إليها.

– تعلمين يا شهيناز.. كثيرون ماتوا. كثيرون سوف يموتون، قال مُداعِباً شعرها.

– نعم نعم، قالت.

رفع كنزتها عن بطنها ثم خلعها عنها وهو يقول:

– والابنُ الصغير واحدٌ منهم.

رمى الكنزة أرضاً.

– آه يا للأسف. جننتُ حين سمعتُ بما حصل. يا لوعتي عليك، قالت وانحنت بجسمها نحوه.

– من الغريب يا عزيزتي الجميلة أنّ الرصاصةَ أصابتْ رأسه تماماً.

وضعَ سبّابته على صدغِه.

– ليس بإمكاني حتى تخيّل هذا. الأوغاد. المجرمون، قالت وهزّت رأسها مرات عدّة.

ازدادَ الألـمُ. مسحتِ الفتاة على مكان الوشم. لم تابعت. انهمرت من عينيّ شهيناز دموعُ ألمٍ لم تستطع ردَّها.

– كم هو مؤلم.. لا أفعلُها ولو موّتوني.. لكن.. إنْ كانت كلّ فتيات الوشومِ على شاكلةِ هذه الشقراء الـ«الضَرب» فقد أفكّر بالموضوع. قال فهد وكأنّما أراد أنْ يحادثها كي يُخفّف عنها.

وقتها حادثها قتيبة من دون أنْ يُطالبها بتحضير الزهورات أو بأنْ يَأكُلا معاً. بهدوءٍ غير اعتياديّ، براحةٍ كما لو أنّه نائمٌ، تمتمَ من دون أنْ يفتح فمه كثيراً. فكّ زرّ بنطالها وسحّابه. رفعتْ مؤخرتها قليلاً فنزعه عنها ثمّ عن ساقيها على مهل. وقف عند نهاية السرير وشدّ البنطال كي يخرج من قدمها.

– الرصاصةُ انتظرتِ السيّارة.. يمكن هذا طبعاً. رُبّما صُنعت الرصاصةُ من أجلِ ذلك الرأس فقط، قال.

رمى بنطالها أيضاً ثمّ دعسَ عليه. رفع يده اليمنى وأشار لها في الهواء:

– طريق الضيعةُ شديدُ الانحدار. صعودٌ وهبوط، صعودٌ وهبوط.

مدّ نفسه نحوها وخلع عنها سروالها الداخلي.

ودّت حينها أنْ تسألهُ لم بقيَ مرتدياً بذلته. أنْ تحبو نحوهُ كما اعتادت وتتمسّك بجسده. لكنّ شهيناز تُدرك تماماً أمزجةَ زبائنها المُتغيّرة باستمرار، وجِنسهم المتغيّر تبعاً لحالتهم. قالت لنفسها إنّ عليها أنْ تهدأ قليلاً وتنتظر، فقتيبة المفجوع لا يُمكن أنْ يُشبه قتيبة العتيد القويّ الذي عرفته.

رأت أنّ وجهه أصبح أكثر شحوباً ودفعتها الإضاءةُ الشحيحة إلى التفرّسِ بملامِحه أكثر. طال سالفاهُ وشارباهُ وتشرذمَ شعرُ ذقنه وانتشر بلا انتظامٍ في وجهه. صارت عاريةً أمامه إنّما لم تستلقِ. أسندت كفّيها إلى السرير وقرّبت ساقيها من بعضهما.

استدارَ نحو الحقيبة ثم انتشل منها حبلاً طويلاً مجدولاً سُكّري اللّون. اقترب منها ودفعها من صدرِها كي تتمدَّد. أمسكَ ساعديها ثمَّ لفَّ الحبلَ حول معصميها وعلى طولِ يدها ضاغِطاً عليها.

– هكذا يجب أنْ يُلفّ.. يا شهيناز.. أعتقدُ أنّكِ تتفقين معي بأنّ ما حصل.. ارخِ يديك.. بأنّ ما حصل غريب ويبعثُ على التساؤل. وإنْ كان الأب لم يسمِّ ابنهُ بعدُ فهذا.. ابقي ثابتةً الآن.. المهم.. هذا لا يعني البتّة أنّه لا يُحبّه. كان فقط يبحثُ عن اسمٍ مُناسب.

ثمّ لفَّ الحبلَ ذاته حول فخذيها فاضطرتْ إلى أنْ تنحني وتتكوّر على نفسها. استمرّ حتّى الرُّكبتين ثم السَّاقين.

– أجملُ الأسماء كانت لتليقَ بذلك الصغير، أجملُها، أجابت.

– آه يا لها من رُكبة. كم حبوتِ عليها، نحوي. كم استندتِ إليها وأنتِ تمصّين.

ربطَ الحبل وشدّه ليتأكّد من سلامةِ العقدة.

– والآن، هذا جيّد.. أحياناً أُفكّر يا شهيناز. تأتيني أفكارٌ من هُنَا وهُناك. وأقولُ.. إنّ من ترصّدوا السيّارةَ إنّما عرفوا طريقها وساعةَ مُغادرتِها العاصمة، سُرعةَ عجلاتِها وقدرتها على الانعطافِ والتجاوز. لا بُدّ عرفوا.

خاطبها وهو واقفٌ خلفها وهي حبيسةُ الحبال لا تقدر على الإتيانِ بحركة.

– ما رأيكِ؟، قال ودفع ظهرها بيده.

– نعم أكيد. ستُمسكهم وتحاسبهم وسينالون الجزاء، قالت.

سرى البردُ في جسدها وارتجفت شفتاها.

– على الأغلب..، قال واتجه نحو الحقيبة. فإنّ لديهم علاقاتٍ واسعةً جداً. «دخلات وخرجات» يعني.. حتى تمكّنوا من الإيقاعِ بقتيبة بهذه الطريقة.

- كيف تجرّأوا. يا لهم من.. من.. كلاب.

- أو رُبّما.. وهناك احتمالٌ آخر يقول.. - استدارَ نحوها وعرفت هذا من شِدّة صوتُه، ولم تتبيّن إنْ كان قد أمسكَ شيئاً من الحقيبةِ أم لا - إنّهم لم يعرفوا من هو قتيبة. من يكون وكيف من المُمكن أنْ يردّ.

صفعها فجأةً على ظهرها بإحدى السياط وشعرتْ بالخيوطِ الجلديّة الرخوةِ فوق جلد ظهرها المشدود.

- فكّرتُ كثيراً وتذكّرت - صفعةٌ في المكان ذاتِه - أنّني كنتُ عند شهيناز الحبابة قبل أنْ أشدَّ الرِّحال.

وصفعها مُجدَّداً أخفض بقليل.

- هذا صحيح.

وشعرتْ بتنميلٍ في ساقيها ويديها.

ضربها. رفعَ السوط بسرعةٍ في الهواء ثم حطّ به على ظهرها. مرّاتٍ عديدة وهو صامت. كأنّه وضع ثقلَ يديه وعضلاتِ جسمه جميعها في كُلِّ صفعة.

ظلّ يضرب حتّى تخدّر ظهرُها وجلدُ مؤخِرتها لثوانٍ ثمّ حاولتْ فَرْدَ ظهرها قليلاً رغم الحبالِ كي تتجنّب تلك السخونة الحارِقةَ التي حلّت محلَّ الألم. مشى نحوها ووقف أمام وجهِها. استمرّ الضوءُ بالتناقصِ.

- من خبّرتِ عنّي يا قحباء؟، قال.

لم تستطع رفع رأسِها لتراه. بقيَ خدُّها مُستنداً إلى السرير.

والآن، وفيما تدرز هذه الحسناءُ ظهرها، يمكنها أنْ تتوقّع عمق انغراز الإبرة، ولون الحبر، ومساحةَ النقط. رغم الخدرِ هي قادرةٌ على تخيّل الرّسمِ وهو يُنقش. لكنّها، في لحظةِ اتهامِ قتيبة لها صُعقت تماماً. كما لو أنّ ذلك السؤال لغمٌ داست عليه فجأة.

- من؟ أنا أُخبّر عنك؟ هذا مستحيل. شهيناز لا تفعل هذا بك، قالت وشعرت بانقباضٍ في حنجرتها.

شدّها من شعرِها حتّى كاد يرفع جسمها كُلّه به.

- ممم من الواضح أنّكِ نسيتِ.. معكِ حقّ، الكلُّ معرّضٌ لأنْ ينسى.

أفلتَ شعرها من يده.

- إلّا أنّ قتيبة يحبّ أنْ يستجوب - بالذات - أولئك الذي نسوا.

رفع سروالها الدّاخلي عن الأرضِ ثم شقّه. وضعهُ على عينيها وربطهُ في عقدةٍ إلى جانب رأسها. تذكرُ تلك العتمةَ الدامسة دوناً عن سواها. ظُلمةٌ لم يكن بالإمكان الفكاكُ منها.

توجّه إلى الحقيبةِ. ثمّ راح يُسدِّد على يديها، وجذعها وخصرها وساقيها وباطن قدميها وطرف رقبتها حتّى أذنها. كان السوط هذه المرّةِ رفيعاً طويلاً.

- تغدرين بي.. تجعلينهم.. يتلطّون.. بين صخور.. الجبال.. كي يهاجموني..

توقّف قليلاً، إذ إنّها أخذت تتلوّى محاولةً اجتناب الضربات. تذكرُ جيداً آلامَ القيدِ ذاك. كُلُّ الضرباتِ كانت تتعاقب، تهدأ، ثمّ تعود. تحرق تلسع ثم ترتاحُ ساعدا قتيبة قليلاً. تُدمي جلدها لكنّها تتركُ في النهايّة نُدباً لا حِسَّ فيها ولا تؤلم.

ذاك الحبل المجدول الذي حوّل جسمها إلى ورقةٍ مطوية.. هو ما عذّبها.

- لستُ أنا، لستُ أنا. صدقني، قالت.

توسّلت فقط كي يصدّقها. لم يستطع صوتها المرتجف إتمام التوسّلاتِ حتّى بكت بصوتٍ مسموع.

لكنّه قلبها نحو الجهةِ الأخرى من جسمها، وتابع.

– كنت عندكِ.. وأخبرتُك.. أنّني سأغيب لبعضٍ.. الوقت.

توقّف وسمِعَتْ لهاثه. تنفّست بصعوبةٍ وكانت متأكّدةً من أنّ دماءها قد سالتْ وجلدها قد تفتّح. مشى إلى الطرف الآخر من السرير حتّى أصبح قبالة وجهِها وشعرتْ بكتلةِ جسدِهِ إذ حجبَتْ عنها الهواء. دفع سبّابته ووُسطاه عميقاً نحو فمها.

– هذه أصابعي التي تُحبّين.. أنا.. أفقأُ بها العيون.

حرّكها في جوفِ فمها. أم أنّك لا تعرفين؟

حاولتْ أنْ تقاومها بلسانِها. حين أخرجها سعلتْ بشدّة وكادت أنْ تتقيّأ. بصقَ على رأسها. سال اللعاب نحو جبينها وبلّلَ العصابة.

– استهترتِ يا حبّابة. ظننتِ أنَّ الفم الذي قبّلكِ لن يبصقُ عليكِ.

– أرجوكَ اهدأ. وحياة ابنائِك.

ارتخت على السرير وقالت وهي تئنّ:

– لا يمكن.. لا يمكن.. هذا غير معقول.. لستُ أنا.. صدقني..

– من خابرتِ.. قولي!

استمرّتْ بالتلوّي والأنين. شعرتْ بأنّ أطرافها ستُشلّ وتتمَوّت من شِدّة اللفّات والعُقد.. حاولتْ أنْ ترتخيَ قليلاً كي لا يضغط الحبلُ أكثر.

– لا عليكِ. ليس لديكِ عائلةٌ أُهدّدُكِ بها. مثل القملةِ أنتِ.. مثل كلبةٍ تنبح في العراء.

انخفض قليلاً نحوها ثم سمعت حفيفَ يده في جيبه. أخرج شيئاً ووضعه على رأسها. كان معدنياً بارداً.

– لهذا.. لن أسألَ سواكِ.

انطلق أزيزٌ عالٍ. شعرت بمرور ماكينةٍ على رأسِها.

- لا، لا.. صرخت فزعاً. هذا كثيرٌ على ذنبٍ لم أقترفه.

مانبعثْ فأمسكها من ذقنها وثبّتَ رأسَها وصار يحلق. استمرّت بالصراخ. بكت بحرقة. تحدَّثَ معها:

- الابن يا قحباء.. هو كائن.. اثبتي أقول لكِ.. عزيزٌ جداً.. أنا في العادة يكون حسابي.. عسيراً. أوه يا لجلدِ الرأس الناصع.. أعظمُ بكثيرٍ من الجُرم.. مثلاً.. انتهينا من النصف. أطفأ الماكينة ثمّ قال:

- تقولين أو أتمُّ النصف الآخر؟

فتحتْ فمها وغمغمت:

- لا أعرف.. لم أحكِ.. صدّق.

- فلنتمّ إذاً. في كُلِّ الأحوال قد شوَّهتُكِ.

أعاد تشغيل الماكينة.

- كي تفهمي.. رُبّما اقترفَ أحدهم ذنباً بسيطاً. لكنّ العِقاب يكون على قدر كُلِّ ما يتبعُ هذا الذنب. أميلي رأسكِ إلى هُناك.. إنْ كتبَ مقالةً مثلاً.. اقتلهُ.. أتعلمين لماذا؟ لأنّ نتائج مقالته قاتلة، فظيعة. نعم..

بكَتْ بلا انقطاع. كمَّم فمها بيده وهزَّ رأسها حتّى توقّفت.

تناولَ السوطَ مرّةً أخرى وضربها. دَخَلَ الشعرُ في فمها وبصَقَته. التصق على فمها.

- سأدفن.. الولدَ.. فيكِ، قال. وشعرت بأنّ دمها يتناثر الآن مع كُلّ ضربة.

شيئاً فشيئاً لم تعد تعي ما يحصل. تذكرُ أنّها سمعتْ صوتَه للمرّة الأخيرة وهو يقول:

- تعال وخُذها. أمامك ثلاث ساعات كي تنقلع أنت وهي من البلد.

أخبرها فهد أنّه حين وصل وجدها فاقدةً للوعي، وقد تبلّلت ملاءاتُ السرير ببولِها.

– أظنُّ أنّنا انتهينا، قالتْ شهيناز حين رفعتِ الفتاة الإبرة عن جسمها. تنفستِ الصُعداء وصفّق فهد.

– يا للجمال.. يا لطيف. طبعاً طبعاً.. كتف شهيناز هذا..

– صحيح؟ أعجبك؟، قالت وتلمّستِ الشريحة البلاستيكية التي وضعت فوقه.

أحضرت لها الفتاةُ مرآةً صغيرة كي تتمكن من رؤيته. لقد نسخت الرسم كما هو تماماً. بدا غزالاً مُمتشقاً من دون أنْ تؤثّر طيّاتُ الجلد أو أيّة حركةٍ قد تقوم بها شهيناز، على انتصابه.

– أحلى غزال رأيته. حين يطيب الجرح يجب أنْ تسمحي لي بتقبيله، على الأقلّ لأنّني دفعت.

تحدّثت إليه الفتاة وشرحت له كيف تعتني شهيناز بالوشم. هزّ رأسه مُتصنّعاً أنه فهم.

– اسمع يا فهد.. أقبلُ العمل في الدكّان العربي، بشرط، قالت حين خرجا من الصالون.

– صحيح؟ يا لسعدي وهناني. قولي يا نوريّة قولي.

– إن اتصل قتيبة أو أرسل خبراً. أترك وأمشي.

– آه الصبرُ يا ربي. لن يتصل. صدّقي هذا. ستبقين هُنَا وتعملين معي.

سارا معاً. تحرّك الغزال مع حركةِ كتفيها، كأنّه يتنفّس.

***

حزمت راوية أمتعتها في ثلاث كرتوناتٍ كبيرة. كما لو أنّها أنقاضٌ تُرحَل.

رافقتها في رحلتها.

ليس لديها سوى حقيبة الظهر اليتيمة التي وإذ إنّها اتسعتْ وقتها لكُلّ ما كانت بحاجته، فإنّها الآن لا يمكن أنْ تحتوي حتى جزءاً بسيطاً من أغراضها. كثُرت راوية مُذ جاءت إلى هذي البِلاَد. ازدادت «كراكيبُها». حجماً وعدداً.

اعتقدت أنّها ما إن تُمنح الإقامة حتى تتوّج أو تُقدّم لها ميداليّاتِ البطولة وعروض الاستضافة الكريمةِ من الغُرباء. لكنّ هذا لم يحصل. منحوها ثلاث سنواتٍ يجب أنْ تتعلم خلالها اللغةَ الجديدة وتبحثَ عن بيت وعمل. وعليها أنْ تتردد كلّ فترةٍ إلى المكاتبِ كي تحلّ أموراً عالقة من مُستندات لم تُوقَّع أو مالٍ لم يُصرَف لها أو سهوةِ موظفٍ كتبَ اسمها بحروفٍ خاطئة. من الجيّد أنّها وجدت غرفةً في بيتٍ ضمَّ فتاتين، ستكون هي ثالثتهما.

هُنَا الفساتين. إلى جانبها التنانير. كلساتٌ مربوطة بشكلِ كُرة ثم بناطيلُ من جميع الألوان والفيزونات القطنية التي يجب أنْ تُلبس تحتها. جراباتُ البيتِ السميكة التي تغطي نصف الساق. الأحذيةُ الجلديّة والشاموا. الكنزات بكلِّ طبقاتِها. تركتْ لشهيناز بعضاً منها، وعُلبةً مليئةً بأقلامِ الكُحل السائل وألوانِ الظلّ الغامقة وأحمرِ شفاهٍ ضد الماء. علبةَ غسولٍ للوجه بقي فيها نصفها وكيسَي بسكويت لم يُفتحا. مشطَ الشعر وطلاءَ الأظافر الكرزيّ.

رغم هذا، فقد أغلقتِ الكرتونات بصعوبة. أعادَتْ ترتيب الأشياءِ فيها مرّاتٍ عدّة حتّى تمكّنت من إغلاقها وإلصاقِ فتحتها بلاصقٍ بُنّي.

قبل أنْ تضمّ حاسوبها إلى الأمتعة، وضعتهُ على الطاولة، شغّلت موسيقى واستمعت. لم يعد سريرُها يغصُّ بالمثلثات. عتبةُ الشبّاك خاليةٌ من ملاقط الشعر التي على وشكِ الضياع. لا توليبات. لا

وريقاتٍ صغيرةً من دخان اللفّ منثورةً هُنَا وهُناك. في الأيام المُقبلة، سيصعد أحدٌ غيرها أدراج السرير المزدوج، ويهبطها.

«غرفةٌ صغيرة.. تكاد تختفي.. لم تتسع يوماً لشيء»، قالت لنفسها.

جلستْ على الكُرسيّ. راقَبَتِ الإطلالة التي لطالما تمنّت أنْ تتجدّد من دون أنْ تستجيب لها الغابةُ القريبة فتحيد قليلاً أو تسمعها السّكةُ في الطرفِ الآخر فتجلب قطاراتِها وتأتي إلى هُنا.

حفظت راوية عدد الغِربان وأحجامها وترتيبَ الحُصيّات في طريقِ الغابة الطويل. أمضت ثلاثة أيـامٍ، مُـذ اختفى عِرفان، وهي تُكذّبُ الغابةَ في قفارِها. تُكذّب مقاعدَ الحديقةِ في خلوّها. والأراجيحَ وألعاب الأولاد في ثباتِها المُحنّط. كـاذبٌ كُلّ هـذا الأفـقِ الفارغ. سيعود عِرفان من هُنَا ويسيرُ من الطريقِ ذاتِه ويملأه.

اختفى عِرفان. جابتْ ممراتِ السّكن وطوابقه. الحمّاماتِ وغُرفَ الغسيل. سألت عنه صاعدي الأدراج. حلّاقي السّكن الشّابين. عاملةَ المطعم اللئيمة. ساعي الرسائلِ المُستعجلة. انتظرت أنْ يوضع صحنه أمامها في قاعةِ الطعام. انتظرت أنْ يكون مُختبئاً خلف التماثيل الحجرية ويظهر لها مازحاً. تخيّلته يبيتُ على الجسر بين الأقفال. في السوق يشتري مريولاً أبيض. سهرانَ مع أهلهِ يضحكُ. اختفى عِرفان وتـأكّـدت من هـذا حين مرّ يـومٌ كامل تجهّزت فيه وخرجت من السّكن، دخلت وغادرتْ مرّاتٍ عِدّة.. ولم تتحرّك سِتارةُ نافذته.

خابرته مـرّاتٍ عديدةً لم يُجب. كـأنّ ذلك الرقمَ بلا صاحب. بحثتْ بين بذورِ الحبِّ التي زرعها في قلبها ولم تجد ثِماراً. اختفى عِرفان وهربَ بكلّ القُبل، وبقيت راوية تُشاهد في أحلامِها أزِقّةً طينيّة تعلق فيها القدم.

أطفأت حاسوبها ووضعته في حقيبته الجلديّة. ألقت نظرةً أخيرة على نفسها في مرآة الحائط.

«هذا يحصلُ.. إنّها الانعكاسات»، تمتمت.

هَمّت بحملِ إحدى الكرتونات. توقّفت قليلاً. أنزلتها. ثم أخرجت هاتِفها من جيبها. اتصلت بجيهان.

– ألو راوية. نعم نعم ركّبتُ بطّارية.

– هكذا يمكنني أنْ أصل إليك دوماً.

– أكيد يا حبيبتي.

– هكذا أفضل، أنا مغادرة الآن إلى الشقة الجديدة.

– جيد يا ماما. تشوّش صوتك قليلاً. آه أتمنى أنْ لا تكون هذه البطارية مغشوشة لأنّني تدبّرتها بسعر رخيص. أتصدّقين كلّ هذا؟ سأعيدها إليه ذلك الـ..

– جيهان.. اسمعيني أيتها الأم. سأبعث لكِ نقوداً مع رفيقتي. اذهبي إلى المكتب.. اسألي عنه. اشترِ له بيجاما. اذهبي...

***

– آه، أنتِ مُغادرةٌ إذاً.

– أجل.

– تبدو الغرفةُ خاليةً.

– تركتُ لكِ فيها بعض الأغراض.

– منذ الآن سأضعُ الكُحل وحدي؟

– خطٌّ أسود. مستدقُّ النهاية.

– صعبٌ عليّ جعلُ الخطّين متناظرين.

– ليس هذا ضرورياً.

– متى نلتقي؟

– يُمكننا هذا دوماً.

– بعد شهر.

– أو شهرين.

– أو العديدِ من الأيام.

– ورُبّما في ليلةِ احتفالٍ آخر.

– نعم.. أراكِ..

– في إحدى أعيادِ الشتاء.

– في إحدى أعيادِ الشتاء.

أعياد الشتاء — ثمّة جانب إيجابي واحد للرحيل. الانسلاخ قد يكون مجدياً، رغم الندوب المعشّشة في الروح. ففي الرحيل نصبح آخرين. نرتدي جلد من كنّا نحلم أن نكونه، أو من يوفّر علينا الأسئلة الموجعة عمّن كنّاه هناك.

شهيناز وصلت إلى بلد اللجوء. تاهت في شوارعه الباردة وعانقتها. أحبّت غزلان أعياده وأضواء بهجته. ونسجت علاقة حميمة مبنيّة على كذبة مع راوية.

راوية لا تألف الشوارع. تسكن جسدها بصمت وخفر، كما تسكن أرضاً بكراً. بين الفتاتين عوالم شاسعة، كثيرٌ من المسكوت عنه، سنواتٌ من الخبرة الحياتية، وخمسة سنتمتراتٍ فقط بين سريرين في غرفةٍ واحدة خُصّصت لاستقبالهما. لكنّهما تتّفقان على حبّ التبولة. وهذا يكفي في صقيع الغربة.

وفي الرحيل، نظلّ نحن أيضاً. نبحث عن الجلّاد رغم الحياة الجديدة التي مُنحَت لنا. فقد اعتدنا ألّا نذوق طعم العيش سوى بالألم. شيءٌ في داخلنا يحتاج إلى الحفر الموجع لنتنفس. هي العادة؟ هو مرض موروث من البلاد التي عشنا فيها مكمّمي الأفواه في أمان وظلّ المارد الجبّار؟ أم هو الحبّ بكلّ بساطة؟

ربّما هو كلّ هذا، والرهان هو إعادة تدويره تحت سماءٍ جديدة...

«تنزع الكاتبة الغلاف الخارجي المحيط بشخصيّتها وتدخل إلى العمق، كما لو أنّها جرّاح يشرّح جسد مريضه، ليرى تلف الأعضاء»

— فايز علام، رصيف 22



نغم حيدر [illegible] كاتبة وطبيبة أسنان سورية، مواليد [illegible] 1987. حازت عام 2010 المركز [illegible] مسابقة وزارة الثقافة السورية للقصّة [illegible] جاء عملها الروائي الأوّل «مرّة» (2014) ثمرة مشاركتها في محترف الروائية نجوى بركات «كيف تكتب رواية». «أعياد الشتاء» هي روايتها الأولى عن دار نوفل.



ISBN 978-614-469-180-9

9 786144 691809

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان